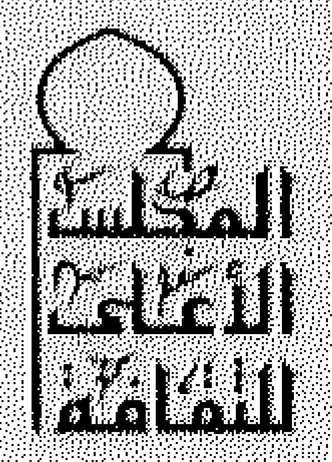
هذا هو
المعلم يعقوب

1745 - 1801





د. أنور لوقا



المجلس الأعلى للثقافة

هذا هو المعلم يعقوب

1745 - 1801

فى ذكرى لويس عوض

التى يحييها المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة

(٢٠٠١)

إتمامًا لنقاش بدأناه سنة ١٩٨٣ فى مرسيليا

مثوى يعقوب الأخير

أنور لوقا

تمهيد
للذكرى والتاريخ

جمعتنى ولويس عوض مدينة مرسيليا، لبضعة أيام من شتاء ١٩٨٣، حيث اشتركنا فى مؤتمر علمى استهدف طرقًا من تاريخ مصر المتوسطى فى العصر الحديث. وبحكم منصبى آنذاك أستاذًا زائرًا فى جامعة إيكس ـ مرسيليا، كنت مسئولا عن الإعداد لمعرض من المعارض الثمانية عشر التى رافقت انعقاد ذلك المؤتمر الحافل. وكان المعمل الفكرى الذى أجريت فيه التجارب التمهيدية لمضمون المؤتمر هو الحلقة الدراسية الأسبوعية التى كانت تضم بالجامعة أساتذة قسم الدراسات العربية وقسم التاريخ المعاصر، وصفوةُ جمهورها من طلبة الدراسات العليا المهتمين بالعالم العربى.

وقد انتهزت سنوات عملى بإيكس ـ ولا سيما تلك الفرصة الذهبية ـ لأستوفى فى مظان البحث الكامنة بجنوب فرنسا، ودور محفوظاتها المتفرقة تفرق الإدارات فى الإقليم، جوانب من دراساتى الاستطلاعية عن «المهاجرين المصريين» التى قطعتُ أشواطها الرئيسية فى باريس- معتمدًا على وثائق قصر فانسين Vincennes (أوراق «جيش الشرق» Armée d'Orient)، ووثائق وزارة الخارجية (Quai d'Orsay)، ووزارة الداخلية (Archives Nationales) ـ وكتبت فصولها ضمن قسم أول من أطروحة الدكتوراه التى قدمتُها للسوربون سنة ١٩٥٧ بعنوان «رحالة وكتّاب مصريون فى فرنسا خلال القرن التاسع

عشر»، ولكنى عند طبع الرسالة بالفرنسية فى باريس (Didier, 1970) أرجأت هذا الجزء لضخامة حجمه، وكثرة ما يعتمد عليه من الوثائق والنصوص والشخصيات التاريخية المجهولة؛ حتى أنشر هذا كله فى كتاب مستقل. وعلى امتداد السنين العديدة التى انقضت منذ بدأت بحثى عن متغيرات العصر الذى أظهر يعقوب، لم أتوقف عن متابعة الدراسات العلمية التى تتعمق التاريخ العام والتاريخ المحلى ــ بمصر وفرنسا ــ مستجمعا إشاعات متضافرة تضىء أحداث تلك الظاهرة.

والطريف أن أبحاثى تلك التى عرضتها بدورى فى حلقتنا العلمية، (أمام طليعة من مؤرخى مصر ــ شيوخًا وشبابًا ــ أذكر بينهم أندريه ريمون A. Raymond وروبير مانتران R. Mantran وجارسان J . c. garcin وديلانو G. Delanoue وإيلبير R. Ilbert إلخ) قد اجتذبت أقصى انتباههم وأصبحت واسطة العقد فى مناقشاتنا.

سردت عليهم مراحل «استكشافاتى» المتأنية فى منعطفات التاريخ الفرنسى الحديث لظاهرة تحمل اسم «المماليك»، بدت لى هامشية فى أول الأمر، ثم تحولت شيئًا فشيئًا إلى بؤرة معنى عميق تغلغل فى المجتمع على عهد نابليون، سرى فى الرأى العام، وفى الأزياء وفى الفنون الجميلة، وفى الأدب والفكر، وأصبح من قيم الحياة الرومانتيكية؛ فقد حرص الإمبراطور نابليون منذ تقلد السلطان فى فرنسا، غداة عودته من مصر، على تشكيل «سَريّة» حربية من «المماليك» ــ تحمل هذا الاسم الغريب المهيب ــ جعلها أقرب بطانته إليه، ودرة حرسه الخاص.

اعتنى نابليون، فى نصوص تشكيلهم، بزيهم الشرقى الفضفاض المزركش مع التنبيه إلى لف عمائم خضراء حول رؤوسهم ـ دليل ولائهم، فالخضرة شعار النبى فى جهاده، ودججهم بأسلحة بيضاء مرهفة، تخطف الأبصار كما تخطفها أساليبهم المباغتة فى القتال، أى الكر والفر على صهوات الجياد. بهم أرهب ممالك أوروبا، وأذهل المدن الحصينة التى مضى يقتحمها على رأس أولئك المردة! وفى ذلك العصر كان المماليك الأصليين ـ البحرية والبرجية ـ قد انقرضوا من تاريخنا المصرى، وأجهز على آخر فلولهم محمد على فى مذبحة القلعة الشهيرة.

ولم أجد طوال أبحاثى بفرنسا مملوكًا واحدًا ممن تصدوا فى مصر لحملة بونابرت سنة ١٧٩٨، أى من رجال مراد بك ـ رغم انتحالهم رسميًا ومسرحيًا تلك الصفة الفرسانية النائية ـ كانوا فى الواقع أخلاطًا من عوام الشوام وتجارهم، ومن الأفاقين اليونانيين، ومجموعة من المصريين، أقباطًا ومسلمين، هاجروا من مصر سنة ١٨٠١ أو بعدها بقليل، فرارًا من شراسة التناحر فى أرضهم على السلطة التى خلت بجلاء الفرنسيين، فقد تصادم فورًا أعنف الصدام كما نعلم عتاة المماليك، والأتراك الغزاة، بل البريطانيون الجشعون ـ كلهم أمعنوا فى التكالب على امتلاك مصر.

ودلنى تباهى نابليون أمام أوروبا بمماليكه، فى احتفالاته الباذخة، وتهافته على تصويرهم من حوله فى لوحات معاركه، طبقًا لتعليمات دقيقة كان يصدرها للرسامين من خلال حليفه الفنان الداهية فيفان دينون

(Vivant Denon) الذى عينه مديرًا عامًا للمتاحف كما دلتنى لوحة رائعة لحصانه الإمبراطورى الأبـيض بريشـة الرسـام العبقـرى جيريكـو Géricault، وهو حصـان أطلـق عليـه نـابليون اسـم تـامرلان (Tamerlan) — أى «تيمور لنك» ذلك الذى حكم المغول وامتد ملكه من التركستان والصين والهند إلى إيران وتركيا، أى البطل الـذى تقمـص قوى المماليك فى مهدهم — دلنى هذا الاعتداد الشخصى العنيد بالمماليك على مركّب نقص نفسانى لازم نابليون المشغوف بأبهة السلطان، ونـمّ عن جرح فى باطنه لم يلتئم منذ جموح شبابه، إذ عجز عن كسر شوكة المماليك بمصر؛ لذا أبدع نظراء لهم، شكلياً، ألحقهم بخدمته، واستمد من خضوعهم وولائهم هالة المجد المؤثل التى يتوق إليها والتى تندّ عن منال جميع الأباطرة...

تبلورت مناقشاتنا حول هذه «العقدة» الشرقية غيـر المنظـورة، وانتهينا إلى صياغة موضوع المؤتمر صياغة تعميمية: «المخيال صانعًا للتاريخ» L'imaginaire Créateur d'histoire، ومن هنا كـان تكليفـى بتنظيم معرض عن قصة اصطناع «المماليك» بفرنسا، يعتمد على أمثلة من آثارهم المادية والثقافية، خصصوا لـه قاعـة مترامـيـة الأطـراف ببلدية مرسيليا، تجاور قاعة المحاضرات.

والحق أن مرسيليا تعبق بأساطير الشرق، وتحمل بصمات شـتى من ظواهر مده وجزره. ميناؤها عريق، ويسـمونها «بـاب الشـرق» لفرنسا (Porte d'Orient) يروى الكثير من وقائعها المغامرون والرحالة، وغرفتها التجارية عالم بأسره من الجغرافيا والاقتصاد والتاريخ، ولكـن

شرطتها تكتب التقارير وتصنعها؛ لذا تحتفظ دور الوثائق فيها، وفى النواحى التابعة لها، حسب أنظمة إدارية مُحكمة، بسجلات وعقود وأوراق دُوّنت فيها الأحوال الشخصية لأولئك المهاجرين، لاسيما علاقاتهم بالأمن وبالقضاء وبمصالح الأملاك والتجارة، وتصاريح التنقلات إلخ.

وكان عمدة المدينة جاستون ديفير (G. Defferre) المعروف بشهامة مواقفه قد تولى منذ سنة ١٩٨١ وزارة الداخلية، وأصبح اليد اليمنى لرئيس الجمهورية الاشتراكى الفائز فرانسوا ميتران (F. Mitterand)، واستقر معظم الوقت فى باريس، على حين أصبحت زوجته ــ بصفة غير رسمية ــ أشبه بوزيرة الثقافة فى مرسيليا؛ فهى الأديبة إدموند شارل رو (E. Charle Roux) الحائزة على جائزة جونكور فى الرواية، والتى عاشت حقبة فى مصر مع أبيها السفير المؤرخ فرانسو شارل رو. وهكذا استبطن مشاعرها حب الشرق، وتجلى على يديها مكان الشرق فى جنوب فرنسا؛ إذ نظمت من قبلُ عدة مؤتمرات عالج فيها المختصون أطوارًا من الاستشراق هناك فى تاريخ العلاقات البحرية والسياسية والاقتصادية والفنية إلخ. وهى صاحبة الفكرة القيّمة فى تنسيق المعارض الثمانية عشر التى شملت فى آن واحد وعلى أوسع نطاق «شرق البروفانسيين» L'orient des Provençaux ــ كما عنونوا تلك المظاهر الثقافية سنة ١٩٨٣. ولقد أبرز تكامل تلك المعارض وتزامنها جوانب تاريخية ومجموعات من تحف خاصة كانت خافية، تمّ تحقيقها وتحليلها لتلك المناسبة، وأصبحت اليوم المنشورات المصورة والمفصلة التى تحصرها من المراجع العلمية النادرة.

وأسعدنى أن ألتقى ضمن أعضاء الوفد المصـــرى الــذى وصـــل للمشاركة فى أعمال المؤتمر بأصدقاء أعزاء، أشاطرهم ذكريات الدراسة والتدريس بمصر وباريس، منهم السيد عبد العزيز سالم ابن الإسكندرية ومؤرخها، ونبيّة الأصفهانى التى تحولت إلـــى الصـــحافة الاقتصـــادية، وتلميذتى بجامعة عين شمس هدى وصفى التـــى اتجهـــت نحـــو الأدب المقارن، وكذلك أمينة رشيد، وليلى عنان إلخ. وكان قد سبقهم لـــويس عوض لمزيد من الزيارات والكتابات.

ولست أنسى، يـــوم الافتتـــاح، محاضـــرته الرصـــينة الأبيّـــة، بالفرنسية، أمام قاعة خاصة بالجمهور. لم يتعرض بكلمة للتوتر الطائفى الذى أحدثه السادات حين أطلق يد الإخوان المسلمين فى الحياة العامة، وعزل بطريرك الأقباط فى أحد الأديرة، بل عنون حديثه «مصر تواجـــه ماضيها»، واستعرض موضوعيًا أطـــوار الشخصـــية المصـــرية عبـــر التاريخ، من الرمامسة إلى عبد الناصر، وتسمياتها المتعاقبة. وإبـــرازًا للمتناقضات أو نفيًا لتمزق الشخصية الوطنية، وصف صولجان السادات ـــ عصا المارشالية ـــ وقبضته المحفور عليها زهرة اللوتس.(١)

وفى حوار جانبى مستفيض مع لويس عـــوض أثنيـــت لا علـــى محاضرته فقط، بل على فصوله الواعية التى كتبها عن «المعلم يعقوب»

---

(١) انظر مجموعة أعمال الندوة فى كتاب:

Le miroir égyptien. Rencontres méditerranéénnes.

Actes Publiés Par Robert Ilbert et Philippe Joutard, Marseille, Editions du Quai-Jeanne Laffitte, 1984.

·قبل عشرين سنة، فأحيا بها مشروع استقلال مصر المغمور في فجر القرن التاسع عشر، وشهدتُ بإفادتي شخصيًا من إتقانه اللغوي في ترجمته الجديدة للوثائق التي نشرها شفيق غربال في الثلاثينيات.

وتطرقنا إلى أبحاثي واستقائي من مصادر مختلفة أعانتني على التوسع في تلك المادة؛ فقد كشفت بين النكرات من أتباع يعقوب جنود مجهولين أبلوا ـ دون أن يدروا في أكثر الأحيان ـ بلاء واضح السمات لا في ساحات القتال فحسب، تلك التي احتكر ما حققوا من أمجادها نابليون نفسه، بل في مجالات الفنون الجميلة والفكر والأدب ونهضة اللغة العربية وتدريسها، مما أضفى على حياة العصر الثقافية عنفوانًا ملحوظًا.

لقد نقل رهطهم ـ بلا قصد ـ خمائر الشرق العربي، لا إلى مرسيليا وفرنسا فقط، بل إلى أرجاء أوروبا، من حيث أقبل عليهم ناشئة الدارسين لينهلوا من منبع علمي متدفق بالنصوص وتطبيقاتهم الطبيعية، وشكّل أولئك «المهاجرون» في الوقت نفسه أمام الرسامين والشعراء والروائيين أسطورة حية، هي التي تفتقت عنها فعالية الشرق في غرس النزعة الرومانسية في النفوس، وما طرأ على ذلك الجيل الأوروبي المعاصر لهم من مشاعر الشوق إلى الانطلاق خارج عالم مادي خانق، والارتماء في الأحلام والآماد النائية القريبة معاً.

وذكرت للويس عوض راهبًا مجهولاً ـ حققتُ شخصيته ـ كان يسعى إليه شامبليون، عقب صلاة يوم الأحد في كنيسة Saint Roch بجوار اللوفر؛ لينطق له بوضوح ألفاظًا قبطية فتحت له السبيل نحو

أصوات الهيروغليفية، وأشرت إلى حصادى الأخير فى دور الوثائق بمرسيليا ومنطقتها، إذ تعرفت بجمهور كبير من أولئك المنسيين، واطلعت على عقود تثبت أنسابهم، وتحدد أوجه نشاطهم، ومستوياتهم من الثقافة أو الجهل ومن الفقر أو الثراء، ورويت كيف ختمت مطافى أخيرًا بعد ما استوفيته من معلومات، بزيارة تذكارية لضريح المعلم يعقوب، الذى ما زال قائمًا بجبانة «سان بيير»، خارج مدينة مرسيليا، وعليه مسحة من المعمار الشرقى، فى ظل نخلات غرسها آل حمصى أصحاب المقبرة، وهم أحفاد العائلة التى ناسبت يعقوب بالزواج من ابنته «منّة».

وما كاد لويس عوض يسمع هذه السيرة حتى أبدى لهفة غريبة لزيارة ضريح يعقوب. وراعنى – فوق اعتزازه المعهود بهذا البطل الطليعى الذى مات وهو يشق طريق استقلال مصر فى العهد الحديث – نزوع، بدائى فى ظاهره، ينطق بحرص المصرى الأصيل على زيارة المدافن! أليست الأهرامات نفسها أضرحة؟ وتواثبت إلى ذهنى أحاديث صديقنا سيد عويس، عالم الاجتماع الذى استشف فى رسائل أبناء وبنات الشعب إلى ضريح الإمام الشافعى تعلق الأحياء من المصريين بحكمة موتاهم، ومشاطرتهم – فى عالم واقعى آخر – حياة الخلود، صعودًا من رئيسة الدواوين السيدة زينب، إلى فضاء أوزيريس وإيزيس وحوريس...

لقد ظل الأكاديمى لويس عوض راسخ الثقة فى بزوغ استقلال مصر مع العصر الحديث، معتدًا بالنصوص التى نشرها المؤرخ المصرى شفيق غربال والمؤرخ الفرنسى جورج دوان، بعد أن قلّبها على جميع

وجوهها واستخرج مغزاها الرائع. لم يعبأ بالمهاجمات التى انهالت عليه حينئذ من أمثال جلال كشك ومحمد عمارة ومحمود شاكر، الذين لم يطرقوا الموضوع أصلاً، إذ انحصروا فى نطاق هامشى من المهاترات الطائفية المحلية، حجبت عنهم العاطفية المستثارة بصفة لويس عوض القبطية وقائع التاريخ ومنطق التفكير العقلى، وهكذا لم يحظ المعلم يعقوب بمؤرخ له يجمع جمهور مواطنيه على كلمة سواء.

كان من العسير حقًا فى مجتمعنا على ملتزم بانتمائه الطبقى الأعلى أن يتخلى عن عادات فكرية صاغتها مشاعره المستحكمة، التى سيّجها الواقع من حوله، وأضفت عليها ثوبَ البداهة ممارساته؛ لذا استعصى على خصوم لويس عوض ـ الذى أهمل بدوره التاريخ الاقتصادى ـ أن يقيسوا معه فى مجال السياسة وحدها جرأة الدور الذى أداه يعقوب، فى مرحلة التحول التاريخى الداهم الذى اجتاحها، وأن يعترفوا بفضل هذا الرجل إذا اختطّ فى معمعة تلك الأحداث خطة مصر كأمة متماسكة. فلم ترد فى مشروع يعقوب إطلاقًا كلمة «قبطى»، وإنما كانت مصر ـ أرض الوطن ـ شغله الشاغل، بشخصيتها الأصيلة، وثروتها، وموقعها التواصلى بين الأمم، دون ممالأة للترك والمماليك والفرنسيين والإنجليز المتصارعين عليها «كالكلاب النوابح» كما كان يقول أبو العلاء المعرى. ومن المؤكد أن «قبطية» يعقوب ـ التى جلبت عليه اللعنات حتى اليوم ـ كانت نعمة كبرى، أنارت وعيه وفطنته، ولولاها لفقد وضوح الرؤية وتخبط. لقد أدرك إدراكًا جليًا ـ وقد انتبذ فى طليعة الأقلية المصرية الساهرة مكاناً ضَمِنَ له استقلالاً ونفوذًا معًا ـ أن الأوضاع تتحرك، وأن موازين القوى تتغير، وأن عهد اغتصاب

الترك والمماليك لبلاده قد انتهى؛ وفى محل السلطة الذى خلا ستحقق مصر وظيفتها الفطرية والرئيسية اللازمة للجميع، ألا وهى التوسط بين الجنوب والشمال والشرق والغرب، سيقولها جمال حمدان فى شرحه الجغرافى للموضع والموقع. وقد أثبتت الأيام أن تخطيط يعقوب السياسى ما كان سوى إرهاص بالحياد الإيجابى المقبل، الذى ستبتدعه مصر، وبمبدأ عدم الانحياز الذى ستتزعمه مصر. لعل انحسار بعض العقليات دون هذا التقدير هو الذى يصدمها بظهور تلك الزعامة قبل أوانها. غير أن المؤرخ الحق هو الذى يصل بين العصور والدول والتيارات.

ولنطرح القضية بصراحة: هل كان يعقوب معاونًا للاحتلال الفرنسى لمصر، أم كان رائدًا للاستقلال الوطنى؟ إن اختفاء شخصيته البطولية فجأة ـ كما فى أحلام الرعب الرائجة ـ من شأنه أن يدفع الجميع إلى التساؤل.

ويجيبنا أولاً معاصره الجبرتى بتصوير المعلم يعقوب فى موقف الموتور الحانق والمدافع عن أقليته القبطية المضطهدة، وهى نفس الصورة التى نجدها بعد أكثر من قرن ونصف فى كتابات المتطرفين الذين هبوا لمعارضة لويس عوض حين نسب ليعقوب مذهبًا سياسيًا حديثًا. ولماذا ننسى أن الشيخ الجبرتى نفسه قد تعاون مع الفرنسيين إذ كان عضوًا عاملاً «بالديوان» فى عهد «مينو» ـ القائد الفرنسى صاحب نظرية احتلال مصر احتلالاً دائمًا؟ وتكفيرًا عن ذنبه هذا، سارع الجبرتى إلى الترحيب الصاخب بعودة الاحتلال التركى، وأهدى للصدر الأعظم يوسف باشا كتابه «مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس»، وهذه أول سطوره:

«حمدًا لمن جعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا، وجعل الدولة العثمانية، والمملكة الخاقانية بهجة الدين والدنيا»(٢)

ويكاد ينمحى ذكر يعقوب فى مصر منذ عودة الاحتلال التركـــــى

---

(٢) عبد الرحمن الجبرتى، مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس، القاهرة، المطابع الأميرية، ١٩٦١/١٣٨٠، ص ١٩. ومن التعليق على هذه العبارة:

«يشيد الجبرتى بالدولة العثمانية، ويجعل منها بهجة الدين والدنيا!! فى حين أنها فى جميع الأقطار التى حلت بها ومنها الأقطار العربية، لم يكن هَمّ حكامها إلا جمع المال والاستئثار بخيرات البلاد ومواردها دون أهلها، هذا إلى التعالى على أهل البلاد وسوء معاملتهم كما لو كانوا أرقاء واجبهم الخضوع والطاعة.

والتاريخ يسجل على العثمانيين أنهم كانوا ولا يزالون متخلفين عن ركب الحضارة فى مختلف عصورهم، وذلك على الرغم من مضى خمسة قرون طويلة منذ ورثوا الإمبراطورية الرومانية الشرقية واتخذوا من عاصمتها قاعدة لإمبراطوريتهم، وعلى الرغم أيضًا من أنهم غزوا وفتحوا الكثير من الأقطار الأوروبية وعاشوا بين أهلها بضعة قرون، ثم عادوا إلى بلادهم كما خرجوا منها، دون أن يتركوا فى هذه الأقطار الشاسعة أى أثر ينم عن نشر الحضارة بين شعوبها هذا إذا استثنيا الناحية العمرانية فى بعض الأحيان، ولذلك يشبه المؤرخون الحكم العثمانى بسيل يغمر الصحراء ثم يتلاشى وكأنه لم يكن وقد ثبتت صحة هذا القول باحتفاظ الشعوب التى حكمها العثمانيون بقوميتهم ثرائهم، حتى إذا ما انقشع ظل الحكم العثمانى عن أوطانهم، انبعثت قوميتهم عزيزة الجانب، وسايروا ركب الحضارة، واستمسكوا بالحياة الكريمة».

إلى نهايـــة العصـــر الخديوى، ثم ينشر جورج دوان (G.Douin) ســنة ١٩٢٤ وثيقة كانت مطوية فـــى بطـــون محفوظـــات وزارة الخارجيـــة البريطانية، تتضمن مشروعًا لاستقلال مصر سنة ١٨٠١ منسوبًا إلـــى المعلم يعقوب؛ فتتردد أصداء الفخر والترحاب، لاسيما بين الأقباط الذين تعرفوا فى هذه الوثيقة ما يؤيد وطنية متأججة عبروا عنها فى السنوات الأخيرة بوقوفهم إلى جانب مواطنيهم المسلمين ضد الإنجليز فى أثنـــاء ثورة ١٩١٩.

ولكن هذه الضجة زامنت على وجـــه التحديـــد إعـــلان حكومـــة دستورية فى مصر، فى عهد الملك فؤاد؛ فســـخر مـــن هـــذا التـــزامن المقصود مؤرخ طويل اللسان، فرنسى القلم يونانى الجنسية، راح يكتب باسم مستعار من جرس لفظة «الشرق» (مع تغييـــر هجـــائى طفيـــف) Auriant، ذلك أن اســـمه الحقيقـــى «اســـكندر حـــاجى باســـيليو» A. Hadjivassilion اسم ثقيل على السمع. ويرجع حقد هذا الشخص علـــى شئون مصر ــ وهو على دراية ببعض خوافيها ــ إلى اســـتبعاده مـــن لجنة ألفها الملك فؤاد لكتابة «تاريخ الأمة المصرية»، أسند رئاستها إلى المؤرخ والوزير الفرنسى هانوتو Gabriel Hanotaux، الـــذى أشـــرف بالمثل على نشر «تاريخ الأمة الفرنسية» ــ وكلها كتب رصينة أصبحت مراجع جيلنا؛ لذا بات «أوريان» يتحين الفرص للطعن فى أعمال أولئـــك المؤرخين (ومنهم شارل رو الذى أرخ لمصر الحديثة)، بإفشاء ما يقـــع تحت يديه من رسائل معاكسة. وعن المعلم يعقوب يجمع أوريان مقالاته الصحفية الشائكة فى كتاب لاذع يظهر فى باريس ســـنة ١٩٤٠ (انظـــر ثبت المراجع).

وأما فى مصر ــ فضلاً عن الملك وحاشيته ــ فقد تصدى من الشعب المحامى عبد الرحمن الرافعى لكتابة «تاريخ الحركة الوطنية» باللغة العربية. وعبثًا نبحث فى أجزائه الأولى عن ذكر يعقوب. لقد التزم الصمت بلا شك ليتجنب أى تلميح لفتنة طائفية.

ولكن المؤرخ الجامعى شفيق غربال، تلبية لمسئوليته العلمية، خصص لهذا الموضوع الجوهرى كتابًا شديد التركيز، استهدف صميم المعنى. أكد فيه نضج الحس السياسى لدى ذلك الزعيم الذى يبدو متفردًا فى مسيرته ضد التيار. ولا أدل على نضجه السياسى من إعداده العدة التى تضمن تحقيق المقصود، أى الاستقلال الجدير بالاستمرار. وقارن شفيق غربال بين تدبير يعقوب الناظر إلى المدى البعيد وبين هبّات أبرز القيادات الشعبية الصاخبة، كالسيد عمر مكرم، والمحروقى، والشيخ السادات، وبعض الدراويش، فإنها لم تتعد حدود الأسلوب الغوغائى العقيم فى انطوائه على غرض شخصى مباشر.

ولم تظهر سيرة ليعقوب فى كتاب إلا سنة ١٩٢١، بقلم أحد أحفاده فى مرسيليا، هو جاستون حمصى G. Homsy، الذى لم يهتم بالأصول المصرية ــ التى ابتعدت ــ اهتمامه بالأمجاد العائلية التى اعتاد أن يفخر بها محليًا أعلام الأقاليم فى فرنسا.

والحق أن المرحلة الأخيرة فقط من حياة يعقوب هى التى لفتت أنظار المؤرخين إليه بما أسفرت عنه من تحول خطير وحاسم. ودعك من خطاب الجبرتى ــ الذى له ما له وعليه ما عليه ــ وإنما تشهد بذلك كتابات من عرفوا يعقوب من الفرنسيين ورصدوا حركاته قائدًا شديد

السيطرة، متقد الذكاء، عظيم الجاه فى الصعيد، حيث رسم صورته ـ إلى جانب تعليقاته ـ فيفان دينون Vivant Denon، بعمامته الملتفة، ووجهه المثلث الدقيق، ولحيته المدببة. وأما سنوات شبابه فتغيب عن الباحثين، فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر، الذى يغلّف فيه الضباب الكثيف معالم الصعيد المصرى.

سدّ لويس عوض إذن بمحاضراته وبكتبه ومقالاته فراغًا فى تاريخنا تجاهله غيره أو هوّنوا من قدره. ولو قد اتجه هذا الباحث بمنهجه إلى دراسة تيارات التجارة والاقتصاد التى هبت على مصر فى تلك الفترة لاتضحت له جذور خبرة يعقوب ودرايته بالواقع المصرى، ولكن جيلى قد انتفع على كل حال بالتحليل السياسى الثاقب الذى نشره وأعاد نشره لويس عوض.

* * *

ولم ألتق لويس عوض بعد أيامنا فى مرسيليا سنة ١٩٨٣، حتى وفاته فى مصر سنة ١٩٩٠. إذ ذاك طالعت سيرته الذاتية، الشديدة الصراحة، «أوراق العمر».

وما أشد ما كانت دهشتى حين قرأت عبارات ألمه المرير فى هذه الفقرة: «فتح دمل التعصب الدينى فى بعض المثقفين المصريين فطفح كل ما فيه من قيح على السطح، وسوف يحاسب التاريخ الرجعية العربية حسابًا عسيرًا؛ لأنها سجدت أمام التمثال الذى أقامه شفيق غربال للجنرال يعقوب، ثم مزقتنى أربًا لمجرد أنى رددت أراءه وترجمت وثائقه.

ونقادى لا يستطيعون ادعاء الجهل؛ لأنى أصلت لهم كل شىء

عن الجنرال يعقوب فى شفيق غربال، فإذا كانوا قد رجعوا إليه ومع ذلك تعمدوا تمزيقى لطرحى قضية «يعقوب اللعين» بهذه الحيدة أو بشىء من التعاطف فإن هذا يثبت سوء نيتهم. وإذا كانوا لم يهتموا بالرجوع فهــذا يثبت انحطاطهم لإصرارهم على الإدانة رغم وجــود شــهود النفــى». (أوراق العمر ص ٥٩٧).

لم تكن تلك مشاعره حين فارقته سنة ١٩٨٣، فما الــذى حــدث بعد ذلك وعكر صفو الماء الجارى تيارًا حثيثًا ــ لا سيما ولويس عوض مجادل أكسبته مهنة التعليم جلدًا على الشرح، وقد اعتــاد أن يعارضــه المعارضون فيرد عليهم بسعة صدر عمادهــا تحكــيم العقــل، وهــدفها تصحيح المعيار وتوسيع آفاق الحرية؟ قيل لى إنه أوذى من كتاب ظهر سنة ١٩٨٦ عنوانه «المعلم يعقوب بين الأسطورة والحقيقة». وقد وقع فى يدى يومًا هذا الكتاب الصغير الحجم، فلم يفــدنى بــأى جديــد فــى موضوع حرثتُ أرضه من جميع أقطارها، وكل ما يضــمه مــن صــور ووثائق ــ رديئة الطبع ــ قد سبق نشــره، اللهــم إلا تلــك الصــفحة المطموسة شبه السوداء، لقصيدة الأب روفائيل بالعربية فى رثاء القائد ديزيه بــأمر يعقوب (ص ٤٢)، غير أنى أعرف هذه الوثيقة فى أصلها الملون المزخرف ولم أعرها اهتمامًا لضعف لغتهــا وتراكيبهــا، وفقــر معانيها التى تتكرر فى شعر المناسبات الأجوف(٣).

ومن الطريف أن مؤلف هذا الكتاب أحمد حسين الصــاوى كــان

---

(٣) انظر طبعة ملونة متقنة لهذه الورقة فى:
= Allain Bernede, Gerard – Jean Chaduc, La Campagne d'Egypt, 1798 – 1801, mythes et realtics. Paris, Musée de L Armée, Hotel des Invalides, 1998, P.128

زميلى فى الدراسة بكلية آداب القاهرة فى الجيزة، التحق هو بقسم التاريخ فيها سنة التحاقى بقسم اللغة الفرنسية (١٩٤٤)، وكنت ألقاه يوميًا فى ساحة قسم التاريخ أمام مكتبة الجامعة، مع صديق شاطرنى الدراسة الثانوية وانضم إلى المؤرخين، على حين ظل يشاطرنى الترجمة إلى العربية لمسرحية من أدب راسين أهديناها لطه حسين، هو اليوم عالم الآثار أحمد عبد الحميد يوسف الذى تخصص فى التاريخ المصرى القديم بموازاة تخصصى فى الأدب المقارن، وكنا نواصل تبادل ما نقرأه من عيون الكتب التى نكتشفها، وما ننظمه من شعر أنحو فيه نحو الحداثة ويتجذر لديه فى التراث(٤). ولم يكن «الصاوى» من الجد بحيث يستطلع تلك الثقافة أو يطمح إليها، وإنما كان «ظريفاً»، عذب الحديث، سريع الخاطر والمفاكهة، يتقمص تلك الخفة التى يسميها المصريون «الفهلوة»، وكان ضعيفًا فى اللغة الفرنسية، مما يؤيده حتى سنة ١٩٨٦ـ للأسف ـ حدود الأبحاث التى يقول فى كتابه عن يعقوب إنه أجراها فى وثائق وزارة الحربية الفرنسية بفانسين، لا أدرى متى، وكنت قد قضيت فى فحصها شتاء (١٩٥٠ ـ ١٩٥١).

ولعله لذلك تحول من المخطوطات الفرنسية إلى تلك الورقة العربية المزوقة التى وجد بها قصيدة الأب رفائيل فى رثاء القائد

---

(٤) راجع «القبس» ـ صحيفة كلية الآداب (التى كان يرأس لجنة تحريرها د. شوقى ضيف، يليه رجاء العربى) ـ عدد ٧ (يونيو ١٩٤٨) ص ٤١ ـ ٤٣ مقال أحمد عبد الحميد يوسف «عصا موسى». وفى عدد سابق قصيدة أنور لوقا «على قيثارة لامارتين» التى ألقاها فى «أسرة الشعر» (برئاسة عبد القادر القط).

«ديزيه» لحساب يعقوب، وجعلها مادة تعليقه الساخر، (ثم أعـاد نشـر النص فى الملحق الأول بالكتاب ــ أى شغل بها ٤ صفحات أخرى).

وما هذا الكتيب فى الواقع سوى مقالة دبجها الصاوى وأرسـلها لمجلة «الدوحة» الخليجية، ولكن حال إغلاقها دون نشر الموضوع، ولا غبار على جامعى مصرى متوسط الدخل أن يسعى لتحسين دخله بمكافأة من الدولارات النفطية غير أنه اختار فترة تصاعد الفتنة الطائفيـة فـى مصر أوائل الثمانينيات ليفعل ذلك، ثم أراد أن يستغل صفحاته المكتوبة، فأضاف إليها معلومات شائعة وفقرات معروفة من الجبرتـى أو شـفيق غربال؛ كى يبلغ المطبوع حجم كتاب من القطع الصغير يروج نشره فى تلك الأيام العصيبة. ولم يحاول انتهاز الفرصة ليسـتكمل معلوماتـه أو يتعمق بحثه، فضلاً عن إعادة النظر، ولو جزئيًا، فى قضية أصدر فيهـا حكمًا مسبقاً. وحسبى أن أنظر فى هامشه المطول (ص٩٦) عن «إليوس بقطر»، فلا أقرأ إلا سردًا لقصص قديمة، وردت فى مراجع قديمة، دون أن يتجشم المؤلف بهذا الشأن عناء الإطلاع ولو على مقال واحد كـان فى متناول يديه، إذ نشرته فى القاهرة (دار المعارف) «كراسات التاريخ المصرى» سنة ١٩٥٣، وفيه تعريف حديث، موثق، بهـذا «المهـاجر» الأسيوطى العبقرى الذى فتح المعجم العربى علـى الحيـاة المعاصـرة، وأثمرت جهوده الشاقة، وذاع فضله بين المستشرقين فى الخارج، وفى مدرسة رفاعة الطهطاوى بمصر(٥).

(5) Anouar Louca «Ellion Bocthor, Sa Vie et son ouvre», Cahiers d' histoire ègyptienne V/5 – 6 (déc 1953) PP 309 – 320.

وكتاب «المعلم يعقوب بين الأسطورة والحقيقة» ــ رغم عنوانه هذا الطموح وتلويحه بوجود الحقيقة فى بطن المؤلف ــ كتاب سهل المأخذ، طلى العبارة، يجتذب القارئ بأسلوبه القصصى السلس. ويبدهك منذ البداية بوعد ثمين هو التزام «الموضوعية»، مع أنه يسوق خطابًا ينافى الموضوعية. هل أشار إلى أن الجبرتى دبج كتابه أكثر من مرة، وأن له فى الفرنسيين صفحات تفيض أحيانًا بالإعجاب وأحيانًا بالقسوة؟ إنه يختار من نصوص الجبرتى فقرات مبتسرة، ويدس من تعليقاته العابرة عليها ما يؤدى إلى إقامة ثنائية فجة بين لئام القبط من ناحية وكرام المسلمين من ناحية أخرى؛ (وهى ثنائية يدحضها الواقع؛ لأن درجات الثراء فى كل من الفريقين تجمع بين طبقاتها العليا، وأما يعقوب فلم يتسلح إلا دفاعًا عن النفس وسط المسكوت عنه من سلوك الاستسلام والخضوع التقليدى لدى الأقباط).

وتبدو عناوين الفصول تسجيلية بما تذكره من أسماء الأعلام، أو أدبية محضة؛ إذ تتناول الأجناس الأدبية نفسها كالقصة (قصة مشروع الاستقلال)، والشعر (قصيدة غير عصماء)، والمسرحية (مسرحية بحرية). وخليق بالمؤرخ هنا أن ينهض بدوره التعليمى، حيث ينبئ تطور الأدب بتطور المجتمع، ولكن بدلاً من التنويه بالأجناس الجديدة التى دخلت إذ ذاك مجال الأدب العربى، أو التعريف بحال ما كان لدينا منها ــ وفى هذا تأريخ عضوى لمفهوم النهضة ــ يتلاعب المؤلف مجازيًا بأغراض الأدب ويواصل خطابه، فهو لم يفطن إلى أن اسم يعقوب قد ارتبط بجنس المسرحية، فضلاً عن الشعر، وأحاط كما سيحيط رفاعة الطهطاوى بعده مباشرة بحركة «التمدن» المتكامل.

وأطال المؤلف فصل «قصيدة غير عصماء» ـــ دون مبالاة باخلال توازن الكتاب ـ كى يلفت نظر الباحث الذى اعتاد أن يتناول يعقوب تناولاً جديًا إلى أن «حزن يعقوب على ديزيه حزن عاشق ولهان يكرر كلمة الحب ومشتقاتها، ويتمنى أن لو كان قد مات فداء له فى معركة مارنجو»! ويستخلص أن علاقة يعقوب بديزيه علاقة حميمة جداً». وصحيح أن «ذكر الحبيب» يتصدر مطلع قصيدة الأب روفائيل وهو:

ذرفنا على ذكر الحبيب دموعاً

سكرنا بها ليوم البعث والحشر

ولكن الناظم يعارض قصيدة ابن الفارض الشهيرة، ومطلعها:

شربنا على ذكر الحبيب مدامة

سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم

أفيجهل الدكتور الصاوى أو يتجاهل ابن الفارض، وما يتردد من شعره على ألسنة متصوفين من الأميين أحياناً؟ لقد بنى على ألفاظ ابن الفارض قصة عشق بين الرجلين أجل، إن من أحدث اتجاهات النقد الأدبى المعاصر، المنبثق عن الألسنية، مدرسة جاوس (Jauss) وإيزر (Iser) الألمانية التى تنتهى إلى دور المتلقى فى إنشاء المعنى الوارد فى النص(٦). غير أن المعنى «المضمر» هنا لا يوجد إلا فى «ضمير»

(٦) انظر: Introduction aux etudes littéraires du Methodc texte: — Sous la direction de Duaulot, — Gembloux, Ed — Maurice Delacroix & Fernand Hallyn, Paris (Théories de la réception). 339 — 1987, PP. 323

المتلقى ـ وبعض الظن إثم[٧]. لقد شاعت لدى العرب تحياتٌ بلاغتها فى المبالغة مثل قولهم: «جُعِلتُ فداك»! وافتحْ حوليات الجبرتى أينما شئت تجد فى صفحة الوفيات فيضًا من اللوعة والأسى، كقوله سنة ١٢٠٢/١٧٨٧: «ومات أعز الإخوان وأخص الأصدقاء والخلان، النجيب الصالح والأديب الناجح، شقيق النفس والروح... إبراهيم بن محمد الدادة الشرايبى...

فلو بعت يومًا منه بالدهر كله لفكرت دهرًا ثانيًا فى ارتجاعه. أو قوله فى سنة مجاورة: «ومات أيضًا الخذن الشقيق، والمحب الشفيق، النجيب الأريب...» إلخ، ومن علامات الحداثة عند رفاعة الطهطاوى انقلابه على «الغزل بالمذكر»، وإعجابه «فى الكلام على أهل باريس» بطبيعة الفرنسيس السويّة: «ومن الأمور المستحسنة فى طباعهم عدم ميلهم إلى الأحداث، والتشبيب فيهم أصلاً. فهذا أمر منسى الذكر عندهم، تأباه طبيعتهم وأخلاقهم. فمن محاسن لسانهم وأشعارهم أنها تأبى تغزل الجنس فى جنسه... فإنهم يرون هذا من فساد الأخلاق والحق معهم»[٨].

ويصر الصاوى على تسجيل الشذوذ فى علاقة يعقوب بديزيه، فيدلل

(٧) صناعة المعنى وتأويل النص. أعمال الندوة التى نظمها قسم اللغة العربية، أبريل ١٩٩١، جامعة تونس الأولى، منشورات كلية الآداب بمنوبة، ١٩٩٢.

(٨) رفاعة الطهطاوى، تخليص الإبريز فى تلخيص باريز، تحقيق مهدى علام، أحمد أحمد بدوى، أنور لوقا. القاهرة، الحلبى، ١٩٥٨، ص ١٢٣.

بتعسفه فى تأويل البيت التالى وهو كسواه بيت ركيك مكسور الوزن:

فيصطحب مع الأقدمين مشتركا

متزينا ببهاء أشعة الحب للبشر

يدلل على اغترابه الكامل عن أدب الثورة الفرنسية، ذلك الأدب الملتزم، الذى يشيد هنا بفضائل الجمهوريات القديمة، كما ينادى «بحب البشر» بعضهم لبعض ترويجًا لمبدأ «الإخاء»، أحد مبادئ الثورة الثلاثة: الحرية/ الإخاء/ المساواة، ومع ذلك، فالمؤلف يتكلف الحرص على إظهار «موضوعيته» فى نهاية فصله هذا التهكمى المتمحك بالألفاظ، فيعترف بأنه «لا يستطيع أن يؤثم هذه العلاقة الشخصية»، بعد أن نثر حولها الريبة والشك! ووخزات الريبة ــ فى مقام الأخلاق ــ أنفذ وأقتل.

عبث إذن يرمى إلى إيهام مقلق بما لا أساس له من الصحة. ولكن لعل أخطر ما يتجنى به أحمد حسين الصاوى على الحقيقة هو خلطه بين القيم، حين يكتب (ص ٨٠):

«إن مصر جزء من «دار الإسلام» يتعايش فوق أرضها شعب غالبيته من المسلمين مع أقلية من الذميين الذين حددت شريعة الإسلام حقوقهم وواجباتهم». إن ألفاظ «الشعب» و«الغالبية» و«الأقلية» من مصطلحات الديمقراطية، وتحيل إلى نظام حكم يعتمد على التمثيل النيابى ــ ذلك النظام الذى سيثير إعجاب رفاعة الطهطاوى فيترجم لمواطنيه الدستور الفرنسى، وهو على وعى تام باختلافه عن الشريعة التقليدية: «فلنذكره لك، وإن كان غالب ما فيه ليس فى كتاب الله تعالى، ولا فى

سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، لتعرف كيف حكمت عقولهم بأن العدل والإنصاف من أسباب تعمير الممالك وراحة العباد»(٩).

ويقضى على ذلك الخلط فى القيم، كتابٌ طبعته طبعة شعبية دار الهلال بالقاهرة فى نفس السنة (يونيو ١٩٨٦)، لأستاذ فى القانون خبير بالفكر السياسى والاجتماعى كان عميدًا لكلية الحقوق فى جامعة الزقازيق، هو الدكتور محمد نور فرحات، حيث نقرأ (ص ١٦٢):

«وغلبة قيمة النظام على قيمتى العدل والحرية ظاهرة يلحظها الباحث فى النظام القانونى لمصر العثمانية، فلم يكن النظام القانونى العثمانى يولى اهتمامًا يذكر لقضية العدل فى توزيع ثروة البلاد. كما أن فكرة المشاركة السياسية من الشعب لولى النعم فى سلطته كانت أقصى المحرمات قاطبة التى يعاقب عليها بعقوبة البغى والإفساد فى الأرض»(١٠).

ويبقى سن الرمح فى كتيب الصاوى مسددًا إلى لويس عوض بالتحديد، فاسمه يتكرر علانية منذ التمهيد (ص ٧) حتى ختام المغزى (ص ٨٣، ٨٤). فالمؤلف يستنكر كيف ينسب لويس عوض ريادة الوطنية المصرية إلى المعلم يعقوب، ويعدله بعمر مكرم، زعيم مدرسة الكفاح القومى إذ ذاك، كما شاع فى الأذهان — دون أن يعرفنا بمضمون تلك المدرسة ومنهجها! ويتولى تعريفنا بتلك المدرسة المؤرخ المختص

---

(٩) نفسه، ص ١٤٠.

(١٠) محمد نور فرحات، «المجتمع والشريعة والقانون»، القاهرة، دار الهلال ١٩٨٦.

فى تلك الفترة شفيق غربال، فيقول (ص ١٥):

«يذكر التاريخ مثلاً السيد عمر مكرم، الذى ترك مصر عند الاحتلال الفرنسى، واشترك فى ثورة القاهرة الثانية عند قدوم الجيش العثمانى لتسلم البلاد من الفرنسيس بحسب اتفاق العريش، وكان للسيد عمر فيما بعد نصيب فى قيام العامة على خورشيد باشا الوالى العثمانى وتنصيب محمد على واليًا على مصر. وجرى له فى أثناء هذه الحوادث حديث مع مندوب خورشيد باشا ينص على حق الرعية فى مقاومة الظلم. ولكن لا يمكن وصف جهود السيد عمر لإخراج الفرنسيين من مصر وتسليمها للسلطان سعيًا لاستقلال مصر. والظاهر أن السيد عمر كان على جانب من علو الهمة وقوة الشخصية، بعثه على العمل للنفوذ السياسى. وقد رأى عاقبة أطماعه لما حاول أن يتحكم فى محمد على كما تحكم فى خورشيد من قبل، فذاق النفى عن القاهرة وانتهاء حياته السياسية».

(وص ٢٣) وهنا الفرق الأكبر بين يعقوب وعمر مكرم. يعقوب يرمى إلى الاعتماد على القوة المدربة، والسيد عمر يعتمد على الهياج الشعبى... هذا الفرق بين الأداة التى اختارها يعقوب وتلك التى اختارها السيد عمر ليس فى الواقع إلا مظهرًا لفروق أعمق. إذ ما حاجة هذا السيد نقيب الأشراف إلى جيش، والرجل لا يتصور مصر إلا خاضعة لحكم المماليك تحت سيادة السلطان، ولا يرمى إلى أبعد من أن يملى إرادته على القائمين بالأمر فيها مدافعًا عن أفراد الرعية كلما زاد الفساد! وهو لهذا يكفيه قيام أهل القاهرة واجتماع كلمة العظماء. أما

يعقوب فله شأن آخر؛ إذ إنه لا يريد عودة المماليك والعثمانيين، وإنما يعمل على أن تكون لفئة من المصريين يد فى تقرير مصير البلاد.»[(١١)].

والحق أن يعقوب قد خرج من الدائرة المغلقة التى تحصر مصر فى قبضة السلطان والمماليك، إلى العالم العريض، بفضل تفتحه على تيارات التجارة الخارجية التى تمر بأرض كان يملك زمام إنتاجها بصفته مباشرًا للملتزم؛ أى أن يعقوب رجل ينتمى إلى دنيا الاقتصاد أولاً، وكان الأحرى بالدارسين ـ بدلاً من التشاجر على مسرح الطائفية الضيق العقيم ـ أن يبحثوا فى هذا المجال الحيوى قبل كل شىء. ولن يشفع لهم أن تاريخ مصر الاقتصادى ولا سيما فى تلك الفترة الحاسمة من أطوارها ـ وهى فترة الانتقال من «معاملات» النظام القديم إلى «مبادلات» الحداثة ـ لم يكن يحظى باهتمام المؤرخين، ولم يوفر لهم مثل المصادر القريبة المنال فى مجال السياسة وأحداثها. أجل، فإن أهم الدراسات فى ذلك التاريخ الاقتصادى لم تظهر إلا أخيراً، بعد أن خصص أندريه ريمون رسالته الضخمة «لصناع القاهرة وتجارها فى القرن الثامن عشر» انطلاقًا من وثائق المحاكم الشرعية (١٩٧٤)، وبعد أن اتجه إلى مجاهل ذلك التاريخ فى مصر الزميل عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم بتوجيه من أحمد عزت عبد الكريم، تلميذ شفيق غربال وخليفته.

وفى حدود الإطار السياسى والاجتماعى الذى أحاط بما صدر من

---

(١١) شفيق غربال، الجنرال يعقوب والفارس لاسكاريس ومشروع استقلال مصر فى سنة ١٨٠١، القاهرة، مطبعة المعارف، ١٩٣٢، ص ١٥، ٢٣ـ٢٤.

دراسات لدينا عن المعلم يعقوب، خلال الجيلين السابقين، يلاحظ نسيم مجلى ـ صاحب الكتاب الشامل عن «لويس عوض ومعاركه الأدبية» ـ تحولاً فكريًا سجله، وعلله تعليل الناقد المتنبه لمسيرة الرأى العام، من «ليبرالية» مثاليتها التحرر، إلى «وحدة عربية» مثاليتها التكتل والتشابه:

«من الملاحظ أن من كتبوا قبل ثورة يوليو ١٩٥٢ يجمعون، مسلمون ومسيحيون، على تمجيد يعقوب ورفعه إلى مرتبة البطل الوطنى واعتباره رائد دعوة الاستقلال. وفى مقدمة هؤلاء الدكتور شفيق غربال فى كتابه «الجنرال يعقوب والفارس لاسكاريس» ١٩٣٢، والأستاذ محمد فهمى عبد اللطيف الذى اشترك فى تحقيق كتاب الجبرتى «مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس» فى مقاله «المعلم يعقوب وموقفه من الحملة الفرنسية» بجريدة البلاغ (١٩٤٧/٩/٢٢)، وفيه يقول إن يعقوب كان أول سياسى مصرى فكر فى جعل المسألة المصرية مسألة دولية على أن تستقل مصر استقلالاً تامًا عن الحكم العثمانى، وأن تكون باستقلالها هذا واسطة لكبح أطماع فرنسا وإنجلترا وهما الدولتان اللتان كانت تتصارعان لتوطيد النفوذ فى مصر وحوض البحر المتوسط.

وعلى نقيض هذا جاءت كتابات الستينيات التى نشرت ردًا على الدكتور لويس عوض... فقد أصر كتابها على إدانة يعقوب واتهام لويس عوض بالفرعونية والطائفية... ويرجع سبب هذا التناقض فى رأيى إلى أن شفيق غربال ومحمد فهمى عبد اللطيف وغيرهما كانوا يعيشون فى مناخ الديمقراطية الليبرالية فى مصر الثلاثينيات والأربعينيات، وكان

لديهم الحرية والدافع لرؤية الواقع التاريخى لمصر العثمانية على حقيقته دون تحيز أو تزييف. أما كتاب الستينيات وما بعدها اللذين عارضوا لويس عوض فقد تأثروا بصورة الوحدة الوطنية والوحدة القومية كما جسدتها مصر فى عهد عبد الناصر وأسقطوا هذا الإحساس على مصر العثمانية الإسلامية فرأوا يعقوب خائنًا أو فى أحسن الحالات منشقًا على نظام المجتمع الإسلامى كما يظن الدكتور أحمد حسين الصاوى فى كتابه «المعلم يعقوب بين الأسطورة والحقيقة»[١٢].

إذن فمن حق لويس عوض ــ الذى عايش الجيلين ــ أن يعبّر فى «أوراق العمر» عن أساه وحسرته لما ذاق من جحود ونكران.

ولكن الهزل والتهكم و«الفهلوة»، لتجريح شخصية قيادية فذة نادت بحقوق مصر فى فجر النهضة وخططت لتثبيتها، لن ينال بالغمز واللمز من قيم جوهرية أصبحت أسس سياستنا فى التاريخ الحديث، منذ استقرار محمد على فوق أريكة الحكم، والتماس رفاعة الطهطاوى مصالح البلاد فى متابعة «البولتيقة»، ثم اضطرام الثورة العرابية ضد الوالى، أى مطالبة جيش نظامى «ببرلمان» كامل الحقوق... وهل يجدينا أن نمحو صورة طليعية من صور أبطالنا، أو أن نشوّه ملامحها؟

* * *

والصفحات التالية لا تستهدف إنصاف لويس عوض بقدر ما

---

(١٢) نسيم مجلى، لويس عوض ومعاركه الأدبية. القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٥، ص ٣٣٢ ــ ٣٣٣

تحاول وضع يعقوب فى مكانه الصحيح من التاريخ المصرى أى فى مدارج عمليات الاقتصاد التى اتسعت أقطارها، انطلاقًا من مركزه بالصعيد، حتى جسَّدت محورًا سياسياً. وما تحمَّس يعقوب فى شبابه لاستقلال على بك الكبير، وما كفاحه ضد الأتراك، ثم ضد المماليك (حين واتته الفرصة لمطاردتهم مع جيش حديث من أبناء الثورة الفرنسية، شاطرهم مبادئ التنوير فى ندوات لديه بأسيوط)، وما تصديه لهجمات حسن الجداوى الكيدية وتحصنه عندئذ فى القاهرة ضد ناقضى اتفاقية جلاء الفرنسيين عن وطنه، سوى مراحل وعيه المتزايد بالتحول التاريخى العظيم الذى عاصره، وأنضج فى منظوره مشروع استقلال مصر عن الحكم العثمانى المملوكى، وإعلان حيادها الدولى حفظًا للتوازن بين قوى البحر الأبيض المتوسط ـ الذى أثبتت له تيارات التجارة تكامل رقعته.

ولن نلقبه بالجنرال، فهو لم يحمل هذا اللقب العسكرى سوى ثلاثة أشهر من سنة ١٨٠١ بعد أن هاجمه المعتدون وتحتمت عليه المقاومة. ولم تكن الإمرة العسكرية غايته، بل إنها إقلال من شأنه، غير أننا لن نلقبه بالأغا ـ كما كان فى الواقع ـ وهى الرتبة العليا التى يطلقها الأتراك على الرئيس والقائد وشيخ القبيلة، فقد كان يكره التتريك.[١٣] وإنما سنسميه المعلم يعقوب، أى بلقبه المصرى الأصيل،

(١٣) د. أحمد السعيد سليمان، تأصيل ما ورد فى تاريخ الجبرتى من الدخيل، القاهرة، دار المعارف،١٩٧٩،ص١٧،حيث يستشهد بالجبرتى ٣/٣٠٤: «وفى يوم الثلاثاء قلدوا على أغا الشعراوى وليًا على مصر، وفيه نهبوا بيت محمد أغا المحتسب».

الضارب فى تقاليد التعامل مع الأرض وفلاحيها ومنتجاتها. والكلمة تعنى الإتقان إلى درجة الأستاذية فى فن إمساك الدفاتر، إلا أننا سنصغى فى لفظة «المعلم» العربية إلى إيحاءها الواضح بالدروس التى استخلصها لنا هذا الرائد من خبرته.

وقد توخيت الإيجاز فى تقديم يعقوب، بأدل ما يجلو مسعاه خلال الوطيس المشتعل الذى أحدق به، فاجتازه برباطة جأشه وسداد نظرته وجرأة تصرفاته. وللاستزادة من التفاصيل أحيل القارئ إلى أبحاث مطولة، موثقة، نشرتها عن هذا الموضوع باللغة الفرنسية.

وفى ختام هذا التمهيد ذى الشجون أقدم أجزل الشكر إلى مؤلف كتاب «لويس عوض ومعاركه الأدبية»، الناقد المحقق نسيم مجلى. إنه كتاب مرجعى شامل، واسع الأفق، يتعمق الظواهر موضوعيًا حتى جذورها؛ لذا يتجاوز فردية لويس عوض ويفتح على الملأ مشكلات الفكر العربى بمختلف دلالاته ـ مقاوماته ومقوماته ـ فى الوثب نحو المعاصرة. وقد إغترفت الكثير من فصوله الغزيرة التى تتجنب المهاترة ولا تتجنب مواضع الحرج والإحراج، بل تدقق فى التعريف بها وفى تحليلها بنصوص ووثائق مطوية، إلى أن تتبدى فى قلب الخلاف نقاط الالتقاء. هذه الروح الإيجابية هى ما نفتقده، وما استوحاه عَرْضُنا التالى لسيرة المعلم يعقوب. إن التعامل بالصراحة والمودة مع النفس ومع الغير خليق بأن يحوّل القارئ إلى إنسان متحضر ـ كما توخى نسيم مجلى عبر صفحاته النزيهة الواعية.

وفى مقام الذكرى والتاريخ، يطيب لى أن أزجى تحية الوفاء للمؤرخ ـ العظيم رغم تواضعه ـ أحمد عزت عبد الكريم، الذى كان

عميد كلية الآداب حين بدأت تدريسى بجامعة عين شمس؛ فقد شحذ عزمى تقديره لأعمالى عن رفاعة الطهطاوى فى الأدب المقارن، وشجعنى على مواصلة المسيرة. ولا أنسى أنه استكتبنى ـ بالفرنسية ـ أول مقال عن «الفلاح السويسرى» جون نينيه J. Ninet ذلك المجهول الذى كان رفيق عرابى فى الثورة الوطنية. ولم يأل أحمد عزت عبد الكريم مناسبة فى محفل علمى إلا وأشاد بنهجى الذى يعيد استكشاف التاريخ من خلال النصوص والأحداث المنسية.

وكان لويس عوض يعتدّ بنشاط أستاذ ناشئ هو الآن الأمين العام للمجلس الأعلى للثقافة. فما أصدق ما كان حدسه!

لقد رفع الدكتور جابر عصفور مصباح التنوير فى مواجهة التعتيم. ولا غرو أن يهتم بنشر هذا الكتاب، وهو الواقف بالمرصاد ضد التعصب، ولعله لا يضيف بذلك هامشًا فحسب إلى «هوامشه على دفتر التنوير»، بل يضيف معرفة مركزية «أصيلة»، أشرق مضمونها مع إشراق النهضة العربية الحديثة.

هذا هو المعلم يعقوب، ولن تضحى مصر بعد اليوم ببطل مغوار، افتتح مسيرتها نحو الاستقلال والتحرر، على مذبح طائفية متشنجة تتجاهل أن هذه الأرض كانت مهد التوحيد، وبوتقة الإيمانٍ على توالى كنوزه ورموزه. وأشرف للعرب فى المنطقة جمعاء ـ وكلٌ على وعى بحقوقه الدولية ـ أن يسلطوا الأضواء على تلك المفخرة التى تمدد إلى الأمام أمجاد نهضتها.

ونص البحث مزيل بقائمة المصادر والمراجع من دور الوثائق

إلى الكتب والمخطوطات والدوريات، فى لغتها العربية والإفرنجية، بدءًا من الجبرتى حتى عفاف لطفى السيد، حتى أحدث كتبى: «مصر الأخرى من بونابرت إلى طه حسين» (قيد الطبع بالفرنسية).

هـذا هـو المعلم يعقوب

١٧٤٥ - ١٨٠١

١- ابن ملوى: محاسب أم تاجر؟

ولد يعقوب بملوى سنة ١٧٤٥، ولا نعلم عن أسـرته سوى اسم أبيه «المعلم حنا» واسم أمه «مريم توفيق غزال». ونجهل هل كان أبوه كاتبًا كغيره من «المعلمين» الأقباط الذين تخصصوا فى إمساك دفاتر الأطيان وحساب الضـرائب علـى الأرض، أم أنه تجاوز هذا الحد المهنى المتـوارث ــ طبـق التقاليد الثابتة إذ ذاك ــ وعمد إلى الاشتغال بالتجارة؟

لقد كانت بلدته ملوى فى القرن الثامن عشـر ميـدانًا مواتيًا لهاتين المهنتين، فهى سوق من أشهر أسواق مصـر الوسطى تتوفر فيها مواد التموين الضرورية للناس من قمح وعسل وزيت وتوابل ومن أقمشة القطن والكتان المنسـوجة فى المدينة نفسها ــ وتلك صناعة مصرية عريقة (القبـاطى) ــ وهى من ناحية أخرى بفضل موقعها الجغرافى وسط سهل خصب قد أصبحت مركزًا لمقاطعة ميسورة تدر الخير العمـيم على «أرض الحرمين» أى الحجاز.

ذلك أن السلطة العليا فى ملوى يتولاها «أمير الحـج»، وهو أعظم المماليك قدرًا بعد «شيخ البلد» (حاكم القـاهرة). ويمثله فى المدينة «سـردار»، أى حـاكم للمقاطعـة يتمتـع بالسلطة العسكرية والسلطة المدنية معًا، ومهمتـه الرئيسـية هى جمع الضريبة السنوية المعروفة «بغلال الحرمين» علـى أيدى معاونيه من الكتاب الأقباط، ثـم نقلهـا إلـى الحجـاز،

بإشراف «قافلة باشى» عن طريق القاهرة والسويس والبحر الأحمر.

وإذا كانت المعلومات تنقصنا عن نشأة يعقوب فى ملوى وبداية نشاطه هناك مع أبيه على الأرجح، فإن نشاطه المقبل يشهد بخبرته كاتبًا وتاجرًا فى آن واحد.

وفى مزاولة هذا النشاط المزدوج كما سنرى ـ شُغْل المحاسب وشغل التاجر ـ تجديد جرىء، بل خرق لمبادئ تقسيم العمل فى مصر العثمانية؛ لأن الجمع بين المهن لم يكن مباحًا فى ظل النقابات المغلقة وانتماء كل مهنة إلى سلطة تنظيمية منفصلة. فهكذا استقل الأقباط بمهنة «الكاتب» أى بوظيفة تقدير الضرائب الزراعية، وأما تجارة الجملة فكانت وقفًا على الأجانب أو رعايا الإيالات العثمانية الأخرى، وقد أدى هذا الفصل بين الصناعات إلى ركود الحياة الاقتصادية من حيث هى تبادل، وباتت النقابات عاملاً من عوامل الجمود ومانعًا للتقدم والابتكار.

٢- تجربة الاستقلال: على بك الكبير:

استطاع يعقوب أن يتخطى تلك الحواجز انطلاقًا من وظيفته «مباشرًا» أى وكيلاً عامًا لإدارة أملاك «سليمان بك» كاشف إقليم أسيوط ورئيسًا لكتبة التزامه، فقد وجد بين يديه موارد ثروة طائلة يجبيها ويتصرف فى تدبيرها ويعمل على استثمارها وتنميتها بعد أن يؤدى أقساط الالتزام للديوان الدفترى (الذى يرأسه الدفتردار صاحب الشئون المالية).

ولا نعرف من تاريخ دخول يعقوب فى خدمة سليمان بك إلا أنه وافق حكم «على بك الكبير»، أى دخول مصر فى عهد من الاستقلال عن السيطرة العثمانية؛ فقد أفلح على بك ـ هذا المملوك الصارم الذى ارتفع إلى منصب «شيخ البلد» ـ فى انتزاع ولاية مصر من السلطان (١٧٦٧ ـ ١٧٧٣). وطرد الباشا التركى من القاهرة، ورفض دفع «المال الميرى» المطلوب للآستانة، وسك النقود باسمه هو، وحاول ضم الحجاز والشام إلى دولته المصرية. ولكى يضمن نجاح مشروعاته حاول أن يحصل من الخارج على مساعدة بعض الدول الأوروبية: اتصل أولا بجمهورية البندقية التى أيدته غير أنها لم تلبث أن فقدت استقلالها، فاستعان بالروسيا التى آزرته بأسطولها فى المياه السورية. كما حاول فى الداخل أن يرسى نفوذه بالاعتماد على أوفى رجال بيته من المماليك، فرقاهم إلى رتبة البكوية وعينهم لحكم الأقاليم ـ وكان سليمان بك واحدًا منهم. وهكذا أثبت طموح على بك الكبير أن

فى مصر من إمكانيات التحرك وعوامل القوة ما يجعلها دولة مستقلة إذا أحسنت قيادتها وإدارتها.

تأثر يعقوب تأثرًا مباشرًا بتلك التجربة، لاسيما وقد استنجد على بك الكبير بالصعيد منذ بداياتها حين حرض الباشا التركى ضده «كشكش بك»، فقد التجأ على بك حينئذ إلى جرجا. وتمكن حزب الصعيد من الانتصار على حزب الترك بالقاهرة.

كان يعقوب إذ ذاك فى الثالثة والعشرين من عمره، أى فى عنفوان الشباب وتفتح الإدراك، فى سن الحماسة والإقدام والتفاعل الخصب بأحداث الحياة. ولسوف ينخرط فى الصراع، ويضطر عقب أن يبلغ سن الأربعين أن يقاتل من هاجموه من الأتراك فى موقعة «المنشية» سنة ١٧٨٦، حيث ينهزم رجال حسن باشا الجزايرلى قبطان البحر التركى الذين حملوا على «إبراهيم بك» و «مراد بك» وتعقبوهما حتى الصعيد الأوسط.

ومنذ تلك المعركة التى أبلى فيها يعقوب على صهوة جواده بلاء الفرسان الذين يحسنون الكر والفر، تغلغل فى وعيه معنى الاستقلال ووجوب الدفاع عن النفس والأرض بالسلاح.

٣- مباشر سليمان بك: تجربة اقتصاد السوق:

لم يشتهر سليمان بك فى التاريخ شهرة محمد بك أبى الذهب ثم مراد بك وإبراهيم بك، مع أنه كان نظيرهم ضمن الثمانية عشر مملوكًا الذين اصطفاهم على بك الكبير لإرساء سلطته على البلاد، وكان لسليمان أخ اسمه إبراهيم بك صاهر إبراهيم بك المعروف. وإنما اشتهر سليمان بك ــ حسب قول الجبرتى ــ «بحبه لجمع المال» فى إقطاعه الواسع حيث «استوطن أسيوط وبنى بها قصرًا عظيمًا». تقلد يعقوب الإشراف على كل شئون القصر الجديد العظيم وعلى كل شئون الالتزام.

والالتزام نظام ربط الزراعة فى مصر بتأدية الضرائب للسلطان؛ فقد أصبحت أراضى مصر ملكًا للسلطان التركى منذ الفتح العثمانى. والحكومة التركية لا تتعامل مع الفلاحين بل تعطى حق تحصيل الضرائب منهم لبعض الأفراد الأقوياء محليًا ــ ولاسيما المماليك، وهؤلاء يلتزمون بدفع الأموال الأميرية للحكومة ويتولون تحصيلها بمعرفتهم. ويوزع الملتزم الأرض على الفلاحين بعد أن ــ يحتفظ عادة بأجودها يستغله لحسابه الخاص، وتعرف هذه الحصة «بأرض الفرسية» التى يستخدم الملتزم فى زرعها الفلاحين بطريق السخرة. فى هذا الإطار تصرف المعلم يعقوب وعمل على تنمية الإنتاج إرضاء «لمخدومه سليمان بك» المحب لجمع

المال. وتفتق ذهن يعقوب عن ترشيد لاستغلال الأرض والأيدى العاملة لفتت ثماره من الأرباح الجزيلة أنظار المعاصرين، فالجبرتى يشرح بإعجاب فى ترجمته لسليمان بك كيف أثرى هذا المملوك: «أنشأ بعض بساتين وسواقى، واقتنى أبقارا وأغنامًا كثيرة. ومما اتفق له أنه جز صوف الأغنام ـ وكانت بعد أن وزنه عليهم ـ ثم وزعه على القزازين فنسجوه أكسية، ثم جمع التجار وباعه عليهم، بزيادة عن السعر الحاضر، فبلغ ذلك مبلغًا عظيمًا».

ويدل قول الجبرتى «اتفق له» على النجاح والتوفيق من ناحية وعلى جدة هذه المبادرة من ناحية أخرى، فالاتفاق بمعنى المصادفة يشير إلى شىء خارج عن المألوف. وتلك مبادرة فذة فى التدبير تتجلى طرافتها فى أنها ذات حلقات متواصلة يعتمد بعضها على بعض، تمتد من الأرض وتوفير الرى للمزروعات إلى الثروة الحيوانية ومنتجاتها، ثم تصنيع هذه المنتجات الخام وتطويرها مرحلة بعد مرحلة حتى تفضى العمليات بالسلعة إلى منفذها التجارى الأخير؛ أى أنها ممارسة واقعية لاقتصاد «التحويل» فى الإنتاج بقصد التسويق والاستهلاك. وهذا هو مدار الفكر الاقتصادى الحديث، الذى يحطم الفواصل بين الحرَف المنعزلة، ويؤلف بينها فى سياق أفقى متكامل يذلل من تنَافرها الرأسى المتمثل فى نقابات الطوائف، بل يجمع باستهداف مصلحة واحدة نائية مشتركة، وبلوغ غاية بعيدة تفترض فعالية الارتباط التنظيمى. وكأن

المعلم يعقوب قد فطن إلى أن «تحويل» الخامة و«التسلسل» فى معاملتها حتى تخرج إلى السوق هما ــ إلى جانب رأس المال ــ أساس الاقتصاد المجزى. وذلك إرهاص محلى ببنية الثورة الصناعية التى ستتمخض عنها أوروبا.

وفى تنظيم الإنتاجية بأسيوط على هذا النمط السابق لأوانه، استخدام يعقوب جهازه الوظيفى المعتاد من الكتبة والمعاونين الذين يرأس إداراتهم فى أرض الوسية: كاتب «المخْلة» المختص بتموين القصر وحاجات أهله، و«كاتب العلِيق» المسئول عن الخيل، و«كاتب الخزنة» أى المحاسب، و«الطرف» الذى يراجع قيمة العملات عند إنفاقها، فضلاً عن «كاتب اليد» الذى يتولى تحرير المراسلات. كما استخدم مرءوسيه القائمين رسميًا بتحصيل الضرائب للالتزام، فالكاشفية مقسمة إلى جهات، والجهات إلى قرى، وعلى كل قرية «كاتب» هو الذى يجمع المال ــ نقدًا أو عينًا ــ بمعاونة «صراف» و«مساح»، وكانت الأسبقية لمهمة المساح الذى يحدد بالقياس أبعاد الأرض المزروعة، فهى تتفاوت كل سنة عقب الفيضان وانحسار مياه النيل. وعلى رأس هذا العدد العديد من رجال الإدارة والإحصاء والقياس والوزن والمتابعة كان المعلم يعقوب هو الممسك فى واقع الأمر بزمام السلطة الإقليمية، يمارس فى تأدية وظيفته الشاملة كل ما يتمتع به الكاشف من نفوذ وامتيازات.

٤- **أسيوط: محط قافلة دارفور:**

كانت أسيوط من أشهر وأهم مدن الوجه القبلي (٢٠٠ ألف نسمة)، ترتفع القصور على تلولها الغربية العالية، وتمتد في شمالها الحدائق، ويجرى من تحتها النيل وعليه ميناؤها في ضاحية "الحمراء". أسيوط إذن باب الصحراء المؤدى إلى النيل، ومن امتيازات كاشفها تحصيل رسوم الجمرك المفروضة، ليس فقط على السفن التى تشحن الغلال من جنوب الصعيد إلى القاهرة، حسب تقدير حمولتها بالأردب، بل كذلك على السلع المختلفة الواردة من السودان مع قوافل دارفور القادمة عبر "درب الأربعين" – وكانت رحلتها عن طريق الواحة الخارجة تستغرق بالفعل أربعين يومًا.

إنها قافلة جرارة تأتى فى السنة مرتين، يقود جمالها المحملة ــ التى يتراوح عددها بين الأربعة آلاف والخمسة آلاف ــ نحو مائتين من الرجال أوثلاثمائة. وكانت تجلب من السودان الصمغ والعاج والجلود والتبر وريش النعام والتمر هندى وغيره من الثمار المجففة والتوابل فضلاً عن العبيد الذين يواصل النخاسون بهم الرحلة إلى القاهرة. مقابل تلك السلع كان تجار السودان يتقايضون أقمشة من القطن أو الكتان صبغت أو نسجت فى أسيوط ذاتها، وأكسية من الحرير وكميات من الصابون وردت من سوريا، إلى جانب أرز الدلتا، والجوخ والأوانى المستوردة من أوروبا. وهكذا أصبحت

أسيوط ملتقى تجار الصحراء وقلب أفريقيا جنوبًا بسلع الشمال، لا سيما قطن الدلتا والشام الذى يغذى أيضًا صناعة النسيج بالصعيد، على حين بدأت مصنوعات أوروبا ظهورها فى المنطقة.

وعلى امتداد تيارات التجارة الدولية تلك التى تجاذبت أطرافها من ثلاث قارات وتقاطعت خطوطها فى جمرك أسيوط بين يدى المعلم يعقوب يتضح لنا تطور فكر هذا الرجل. فقد أدرك مقدرات التوسع الاقتصادى بالتوسيع فى تبادل السلع وراء الحدود المحلية، ولمس كيف تضاعف التجارة الخارجية دخلاً حيويًا إذ ينصبّ فيها إنتاج تجربة "اقتصاد السوق" التى جربها بنجاح داخل منطقة أسيوط. ولا نعرف حجم الصفقات التى شارك بها يعقوب لحسابه ضمن تلك المبادلات المجزية المتتالية المنتظمة، ولكننا نستدل على أهميتها من توجه حياته الخاصة. فقد تحول مجراها الشخصى بموازاة تحول نشاطه.

٥- **زوجة من حلب: أو روابط التجارة الدولية:**

كان يعقوب قد تزوج فى الخامسة والعشرين من عمره بابنة خاله «مختارة الطويل» المولودة مثله فى ملوى. ورزق منها ولدًا مات صغيرًا، ولم تلبث زوجته أن ماتت كذلك، وكان الطاعون متفشيًا فى البلاد. وفى السابعة والثلاثين من عمره ــ أى سنة ١٧٨٢ ــ قرر يعقوب أن يقترن لا بقرينة له قبطية بل بفتاة سورية هى مريم ابنة التاجر الحلبى «نعمة الله بابوتشى».

واسم حلب يعنى أروج التجارة إذ ذاك فى بلاد الدولة العثمانية. كان بهذه المدينة ثلاثون سوقًا تستقبل وتوزع سلعًا مصنوعة فى أوروبا وخامات واردة من آسيا. وذلك بفضل موقعها على محور جغرافى يربط المحيط الهندى ــ عن طريق البصرة ــ بالبحر الأبيض المتوسط. كما كانت حلب تصدر إلى مصر وإلى غيرها من الولايات العثمانية ما تنتجه أيضًا منطقتها العامرة المتسعة، وأهم محاصيلها القطن.

وتلك الزيجة الكاثوليكية الشامية ــ التى أغضبت بطريرك الأقباط على يعقوب ــ ظاهرة تاريخية من معالم ذلك العصر، جديرة بأن نتفهم مغزاها. ولن نصعد فى التاريخ إلى سلاطين المماليك الذين طردوا المغول والصليبيين من سوريا فى القرن الثالث عشر وضموا القطر السورى إلى دولتهم فى مصر حتى هزمهم الجيش التركى سنة ١٥١٦ فى موقعة

«مرج دابق» شمالى حلب، وفرض السيادة العثمانية على البلدين، مما أدى إلى ارتباط مصيريهما على نسق آخر. حسبنا أن نقف عند مغامرة على بك الكبير الاستقلالية، فقد هزت دعائم النظام العثمانى فى أواخر القرن الثامن عشر وأخلّت بتوازن القوى الحاكمة، وفى مثل هذه الفترات من تخلخل السلطة، أى من انحسار الاستبداد، تزدهر أحوال الأقليات المسيحية فى الدولة.

ويتضح انتعاش حلب فى زيادة حجم معاملاتها التجارية عندئذ مع الخارج، ووفود عدد كبير من تجارها المسيحين إلى مصر مندوبين عن بيوتاتهم المشتغلة بالتصدير والاستيراد. لقد شكلت هجرة الشوام لمصر موجة عارمة بين ١٧٧٦ و١٧٩٨، وطغى فى إحصاءات تلك الهجرة عدد الحلبيين على عدد الدمشقيين. والحق أن على بك الكبير هو الذى فتح ذلك الباب منذ ١٧٦٩ حين سحب فجأة التزام الجمارك المصرية من أيدى الملتزمين اليهود ــ وكانوا يحتكرون استغلالها ــ ووضعها فى أيدى ميخائيل فخر ويوسف البيطار الحلبى. ذلك أن على بك الكبير فى طموحه التوسعى باتجاه الشام أراد أن يموّل نفقات حملاته بالاعتماد على موارد طائلة تستطيع أرصدة ثراة الشوام أن تضمنها له، بينما تقصر عنها طاقة اليهود. ويعزز من فوز المسيحيين الشوام ما كان لبعضهم ــ كإبراهيم الصباغ وميخائيل البحرى ــ من مكانة ونفوذ لدى الشيخ «ظاهر العُمَر» صاحب عكا وحليف على بك الكبير.

ويسجل القنصل الفرنسى «مور» Mure هـذا التحـول المشهود فى تقرير لـه سنة ١٧٨١ إذ يقول: «منذ حـوالى عشر سنين أصبحت الجمارك المصرية فى أيـدى الكاثوليـك الشوام الذين استقروا بهذا البلد. ومنذ ذلك العهـد تواصـلت هجرة أبناء تلك الملة إلى مصر، حيث يتابعون سعيهم الوطيد لتنفيذ مشروع استيلائهم على التجارة بأكملها».

٦- قصة تفوق الشوام:

ويرجع ثراء تلك الطائفة من نصارى الشوام، وتميزها بالحركة فى الولايات العثمانية، إلى إفلاتها من ضغوط السلطة التركية المرهقة المفروضة على الأقليات؛ فقد فضّلت أن تنتمى إلى المذهب الكاثوليكى فى روما للإفادة من وضع «الحماية» القانونى الذى يمنحه السلطان لرعايا الدول المسيحية الأوروبية فى دولته طبقًا للاتفاقية المعروفة «بالامتيازات» Les Capitulations. وكان المسيحيون من أهل حلب أسبق إلى التمتع بتلك الحماية. ولكن نصارى الشام الذين انتموا إلى بابا روما حرصوا فى الوقت نفسه على شخصيتهم القومية، واستمسكوا باللغة العربية فى ممارسة طقوسهم الكاثوليكية وصلواتهم. ومن هنا كان تفرّد تلك الطائفة واشتهارها باسم المسيحيين «الكاثوليك اليونان» Grecs Catholiques، واليونان إشارة إلى أرثوذكسيتهم البيزنطية السابقة. والطريف أن ذلك الحرص على الأصالة قد تجلت آثاره الثقافية فى النهضة الأدبية العربية التى قاوم بها السوريون سيطرة العقلية التركية.

وأتاحت مقدرات حلب الجغرافية لأهل هذه الملة أن ينصرفوا إلى مزاولة التجارة داخليًا وخارجيًا، دون التقيد بالقيود الديوانية والضريبية التى شلت سواهم؛ لذا اتسعت رقعة معاملاتهم حتى بلغت مداخل أوروبا، لاسيما أن بدايات

الثورة الصناعية فى الغرب قد دفعت بالسلع الأوروبية نحو الشرق. وأصبح لهؤلاء الشوام ومنهم فى أواخر القرن الثامن عشر ممثلون ثابتون لتجارتهم عبر البحر الأبيض المتوسط، استقروا فى الموانى الإيطالية كالبندقية وليفورنو وتريستا.

وأدت الضغوط المتشابهة التى تقع فى الولايات العثمانية على الأقليات المحلية إلى تقارب اجتماعى عام فيما بينها، نشهد على قمته الطبقية فى مصر تلاقى المصالح الاقتصادية لأصحاب النفوذ المالى، أى رؤساء الكتبة الأقباط ورؤساء الجمارك الجدد. هكذا نشأت علاقة المعلم يعقوب بملتزم الجمارك المصرية الأكبر «أنطون قسيس فرعون» الشامى، وكارلو روسيتى Carlo Rossetti التاجر البندقانى الواسع النشاط ـ زوج أرملة يوسف البيطار ـ والذى لا تلبث النمسا أن تعينه قنصلاً لها للإفادة من علاقاته الحيوية بالمنطقة. ولتوثيق الوشائج الاقتصادية الخاصة، وتعزيز المصالح التى يتبادلها ويتشاطرها فى مصر أطراف تلك الحركة التجارية المتنامية، انعقدت أواصر المصاهرة بين عائلات من أغنياء الأقلية الشامية وأغنياء الأقلية القبطية.

وكان الشوام فى القاهرة يسكنون قرب «الخليج» بين «القنطرة الجديدة» و «الموسكى» أى بين حى الأقباط من ناحية وحى الأفرنج من ناحية أخرى ـ حيث كانوا يقيمون الصلاة فى كنيستين كاثوليكيتين تعرفان «بالدير الصغير»

و«الدير الكبير» ـ وكأنهم يرسمون علـى سـطح خريطـة المدينة مكانهم الوظيفى الجديد فى مجتمع يتطور.

ولعل فى السطور التالية المؤرخة بسـنة ١٧٨١ مـن تقرير القنصل الفرنسى «مور» الآنف الذكر ما يلقى الضـوء على الظروف التى اكتنفت خطبة المعلم يعقوب لبنـت تـاجر حلبى وزواجه بها فى العام التالى: «فى مدة الثلاث أو الأربع سنين الماضية تمكن الكاثوليك الشوام من الاستيلاء على كـل تجارة الهند وجزيرة العرب النافذة عن طريق البحر الأحمـر، وعلى كل تجارة الشام، وقسم من تجارة إزمير. وعما قليـل ستصبح فى أيديهم تجارة المغرب بأكملها وهى عظيمة الحجم. إنهم يتولون تجارة ليفورنو بتمامها تقريبًا، وبالتالى تجـارة إنجلترا التى تنطلق منها. ويتقاسمون تجـارة البندقيـة مـع البنادقة. وقد أنشئوا أخيرًا مؤسسة لهم فى تريستا».

٧- فى ذاكرة الأقباط:

اعتبرت طائفة الأقباط سلوك المعلم يعقوب شذوذًا، ورفض البطريرك أن يبارك زواجه، بل أحس فى اقتران هذا الرجل البارز بكاثوليكية خطوة جديدة من تقهقر الكنيسة القبطية الأرثوذكسية العريقة أمام تقدم المذهب الكاثوليكى فى مصر خلال القرن الثامن عشر. وانطبعت صورة ذلك النزاع الداخلى فى ذاكرة الأقباط. فمما يرويه يعقوب بك نخلة رفيلة مؤلف «تاريخ الأمة القبطية» ـــ المولود سنة ١٨٤٧ والمتوفى سنة ١٩٠٥ــ نقلاً عن المعمرين من شيوخ الطائفة الذين استجوبهم ليعلم علم المعلم يعقوب: «إن رجال الدين لم يكونوا راضين عن تصرفاته وأحواله وإن البطريرك نصحه المرات العديدة بالعدول عن هذه الخطة وبأن يعيش كسائر إخوانه فلم يقبل، وعاوده النصيحة مرة أخرى فجاوبه يعقوب جوابًا عنيفًا فسخط عليه».

وسمع نفس المؤلف من قبطى مسن أيضًا صدى ما شاع بين معاصرى المعلم يعقوب من قصة «دخوله الكنيسة راكبًا جواده ورافعًا سلاحه، وطلبه أن يتناول السر المقدس وهو على ظهر جواده، معتذرًا عن هذه الجسارة بأن من كان جنديًا مثله يلزم أن يكون على الدوام فى أهبة واستعداد». وتلك صورة أسطورية تختلط فيها الوقائع المتفرقة وتتشكل الموضوعات المتباعدة تشكلاً مجازيًا يجمع بينها فى سبيل

إنشاء معنى معين. فهى تريد أن ترسم خطًا رأسيًا مقلوبًا يمثل العلاقة التى فيها يخضع رئيس الكنيسة رغم سلطته الروحية (المناولة) وسلطته الشرعية (عقد الزواج) لإرادة قائد عسكرى متمرد!

ولكن هل تَنكّر يعقوب حقًا لصفته القبطية؟ لا شك أنه تعدى حدود طائفية محلية ضيقة، ليؤكد فيما وراءها تعايشًا أوسع بين الدين والمجتمع؛ وكأنه يطبق تطبيقًا عفويًا مبدأ التسامح الذى يفتقده فى بيئته، والذى كان يدعو إليه فى ذلك القرن من التاريخ ـ دون أن يدرى يعقوب ـ مفكرو عصر التنوير فى الغرب. وما التقارب الذى عمد يعقوب إلى إعلانه بين جماعتين متضامنتين على صعيد الاقتصاد ـ ومع ذلك تتنازعهما كنيستان مختلفتان ـ سوى محاولة أولى لحشد جانب من طاقات المقاومة، وهى القوة الاقتصادية، ضد السلطة السياسية التى تعيث شراذمها العسكرية فى البلاد فسادًا. والاقتصاد بنية أعمق وأخفى من ظاهر الحكم السياسى فى بنيان الدول. وقد ظل المعلم يعقوب وزوجته ـ فى إطارهما المذهبى الأوسع ـ على الوفاء والإحسان، فقبيل موته وهب يعقوب من أملاكه الأرض التى شيدت عليها البطريركية القبطية بالقاهرة سنة ١٨٠٠ كما يقول على باشا مبارك فى خططه، وكذلك ستساهم أرملته فى بناء كنيسة «سان نيقولا دى مير» بمرسيليا التى سيفتتحها سنة ١٨٢١ ويرعاها «مكسيموس مظلوم» مطران «الكاثوليك اليونان» منتدبا من حلب.

وفى ذكريات أقباط القرن الماضى التى تناقلوها بشأن المعلم يعقوب وردت، قبل توهمهم صورته العسكرية وهو يقتحم الكنيسة على صهوة جواده، هذه الملاحظة العابرة الحائرة: "يظهر أن يعقوب لم يحترف بحرفة الكتابة فى الدواوين مثل باقى عظماء أبناء أمته، بل كان من أصحاب الأملاك والتجارة". وهى ملاحظة جوهرية، ولكنها جاءت عرضًا لمجرد التدليل على غرابة سلوكه بالنسبة لأهل طائفته، تمامًا كالاحتجاج بأنه «فضلاً عن مخالفته لهم فى الزى والحركات اتخذ له امرأة من غير جنسه». وغاب عن القائلين منطق ما استغربوه؛ ففى تلك العبارة مفتاح تطور يعقوب كما رأينا، ونبضات التاريخ الاقتصادى الذى عاصره.

٨- الصعيد: مسرح التنازع على حكم مصر:

لم تكن تجربة على بك الكبير الاستقلالية بدعا إلا للناظر إليها من عتمة العشية. وأما يعقوب "المباشر" المتيقظ فى قلب الصعيد، فقد شهد الأحداث من حوله تتالى وتسابق الزمن خلال العقود الأخيرة من القرن الثامن عشر. وخاض من الملابسات والأخطار فى حاضره المتقلب ما أظهر له انحلال نظام الحكم: وهْن السلطان التركى القابع فى اسطنبول، وتنافر القوى المملوكية المتشرذمة فى أنحاء مصر والمتلهفة على المال تغتصبه فى الحال. ومكنته وظيفته الاقتصادية المتعلقة فى واقع الأرض من الوقوف على تردى أوضاع المنتجين، واستفحال نفوذ الملتزمين، ودأب العسكر على الابتزاز وقطاع الطرق على مهاجمة قوافل التجارة. وفى هذا السياق من التمزق والتخبط وسطوة العنف فى غياب سيادة الدولة برز على بك الكبير، وما كاد يمسك بزمام السلطة ويستقل بمصر بضعة أعوام حتى غدر به ربيبه «أبو الذهب»، الذى يهلك بدوْره بعد عامين من سفك الدماء، فينتهى الأمر إلى تسلط اثنين من مماليكه: إبراهيم بك ومراد بك. وإذ يتصدى لهما إسماعيل بك ممثل المماليك «العلوية» ـ نسبة إلى على بك الكبيرـ يستأنفان ما درجت عليه طائفة المماليك من سياسة الفر إلى الصعيد والكر إلى القاهرة.

كانت رقعة الصعيد بطبيعتها الجغرافية المديدة الوعرة

النائية عن القاهرة ملاذ البكوات المنفيين أو الفارين من بطش خصومهم. هناك يستجمعون قواهم ليُغيروا على الشمال أو يهزموا الحملات التى تتعقبهم بمشقة، أو يدبروا مع قادتها المؤامرات. وكان صنجق جرجا أقوى حكام الأقاليم من البكوات المماليك، وأطولهم بقاء فى منصبه، لاسيما وهو يستند فى الجنوب إلى نجدة نظام حكم آخر أشبه بدولة فى الدولة، عاصمتها فرشوط ويمتد نفوذها الفعلى من المنيا.. إلى أسوان. تلك هى دولة شيوخ العرب الهوارة الذين استقروا فى الصعيد الأقصى بعيدًا عن منال السلطة المركزية فى القاهرة، وذلك بحيازة «الالتزام» على مساحات متتابعة شاسعة من الأرض أكبوا على العناية بزرعها وإنتاجها، ووفروا ما يقتضيه استغلالها من استتباب الأمن وترشيد الإدارة.

ويتحدث الجبرتى وكثير من الرحالة بالإعجاب عن شخصية الشيخ همام (١٧٠٩ - ١٧٦٩) أعظم أمراء الصعيد وأخرهم، ويجمعون على ذكر ثرائه وكرمه وهيبته، بل عدله فى تصريف شئون مقاطعته التى يشرف على كتابها و«عمالها» مباشره القبطى بولص بن منقريوس. كان همام يعقد المجالس العامة لسماع الشكاوى والفصل فيها، ويقرض الفلاحين من المال ما يحفزهم على العمل المثمر. وكان يخطط بحصافته لمعاملات التجارة محليًا وخارجيًا، ولعلاقاته مع المماليك المضطربين والسلطة العثمانية فى اسطنبول. غير أن

على بك الكبير الذى انبرى حينئذ لسد فراغ عصره انطلاقًا من القاهرة، لم يكن لـــه بد بعد أن تفوق على غرمائـــه لينفـــرد بالسلطة، من أن يكسر شوكة همـــام فـــى الصـــعيد، فتـــذرع بمنازعته «التزام» قسم من الأرض وتحرش به وقضى عليه منذ سنة ١٧٦٩. وورثت أسيوط الكثير من رخـــاء فرشـــوط التجارى ومرجعيتها السياســـية فـــى تـــرجيح كفـــة بعـــض المتنافسين على بعض. وأصبح فى يدى يعقوب هذا المزيد من النفوذ ومن الرواج الاقتصادى، وبات خير من يقّـــدر تـــدبير همام، أى «مؤسساته» كما نقول اليوم، من حيث اســـتقرارها ونتائجها المجزية، وجعل يطورها لديه وينمّيها، ويقتبس فـــى كل المجالات التى يباشر الإشراف عليها أجدى الـــنظم التـــى أرساها مصلح الصعيد.

٩- **القطع والوصل**:

زالت دولة همام، زالت دولة على بك الكبير، ولم تبق سوى السيادة الاسمية للسلطان التركى الجالس فى اسطنبول، والفعلية لأعوانه ـ وأعدائه فى الوقت ذاته ـ من المماليك، الذين نشأوا على التناحر كذلك فيما بينهم، والذين ولاهم سليم الأول منذ دخوله مصر حكامًا ـ بصيغة الجمع ـ على أقاليمها كيلا يستقل دونه أحد بهذه المستعمرة. لقد وضع فوقهم نائبه «الباشا» فى القاهرة، وحولهم عسكره أى أوجاقاته السبعة وأهمها الإنكشارية أو المستحفظان، وتفكك القطر لا إلى شمال وجنوب فحسب، بل إلى «كاشفيات» صغيرة بلغت فىالصعيد وحده ـ عدا ولاية جرجا ـ أكثر من عشرين "كاشفية" (سبع كاشفيات بمصر الوسطى هى: إطفيح، والجيزة، والفيوم، وبنى سويف، والمنيا، وأشمونين، ومنفلوط. وأربعة عشر كاشفية بمصر العليا هى: أسيوط ، وأبوتيج، وطما، وطهطا، وأخميم، وفرشوط، وبرديس، وهو، وبهجورة، وقنا، وقوص، وإسنا، وإبريم، والواح أى الواحات). وظن المسيطر التركى أن فى تفتيت وحدة الصعيد الإدارية هكذا ما يدرأ خطر العربان الطامعين فى الأرض وخاصة عربان الهوارة.

والحق أن دولة العربان كانت الثالثة فى مصر، بعد دولتى الترك والمماليك. نزلت قبائلها خلال عصور مختلفة

على أطراف مصر الخضراء تنتجعها أو تنهبها فزاحمت السلطة المركزية بحكم طبيعة «صراع الطين والصحراء» حسب تعبير جمال حمدان. وفى القرن الثامن عشر ضرب همام أروع الأمثلة على ازدياد إمكانية اندماج العربان، باستقرار الهوارة فى الصعيد.

وثمة دولة رابعة لم تلفت الأنظار لاختفائها فى نسيج المجتمع المصرى ذاته، هى دولة القبط المنحدرين من أقدم أهل البلاد والذين مازالوا يحملون اسمها بعد تعريبه. دولة أشبه بالغائبة ولكنها حفظت وحدة مصر؛ فبالرغم من تهميشهم وانطوائهم على عيش المستضعفين ــ وجملة سكان مصر إذ ذاك مليونان ونصف ــ ظل القبط وبأيديهم بصمات الأصالة يمدون جنوبًا وشمالاً شبكة من الخيوط الدقيقة هى التى أبقت كماء النيل فى الأرض السوداء على كيان مصر طوال قرون الاستنزاف. كان فى كل قرية كاتب قبطى يحسب حساب الأرض بالفدان والقيراط والسهم ويسمى المزروعات ويحدد كمياتها لتقدير الخراج. ومن أقاصى الصعيد إلى جمارك الإسكندرية ودمياط ــ فضلاً عن فريق القاهرة لدى «شيخ البلد» ــ انتشر الأقباط فى شرايين الإدارة على اتساع جغرافية مصر، وفى مختلف مواقعهم كانت تبلغهم جميعًا رسائل البطريرك عن طريق الأساقفة والكنائس أو الشخصيات الشهيرة فى مناطقهم. وكثيرًا ما كان يقوم البطريرك ــ مرقس ثم يوحنا فى أواخر العهد العثمانى ــ بجولات رعوية

لمشاطرتهم الأسى فى النكبات وحضهم على الصبر إزاء تعسف السلطة أو تفشى الأوبئة.

كما كانت منشورات الكنيسة تحثهم دوريا على التكافل الاجتماعى وتنهاهم عن شرور العصر كالميسر والسحر أو الرقص الماجن فى حفلات الزواج إلخ، وشكّل هذا الوعى القبطى الكامن بالترابط الشامل ـ رغم تقطيع المقاطعات وتحكّم العنف المباغت ـ قاعدة لتماسك البنية التحتية فى مجتمع يفتقد وحدة التراب الوطنى.

وجاءت دولة خامسة هى الحملة الفرنسية التى جهرت بعزمها على تحطيم دولة المماليك الذين طغوا وبغوا. جيش حديث التجهيز سرعان ما قاتل أولئك الفرسان العتاة فكشف عجزهم أمام فنون المدفعية والتخطيط الجماعى، وأثبت انتماءهم إلى عهد بائد. كانت معركة امبابة (٢١ يوليه ١٧٩٨) مواجهة تاريخية، فر على أثرها مراد بك وفلول أتباعه إلى الصعيد.

ودخل بونابرت القاهرة، وأخذ فى تنظيم إدارة مركزية. وبينما استقر بقيادته فى قصر الألفى بك بحى الأزبكية، اختار علماؤه ـ وهم أكثر من مائة وخمسين عالمًا متخصصًا ـ دار حسن بك كاشف مقرًا لمعاملهم وأدواتهم ومكتبتهم، فأسسوا «معهد مصر» على نمط «معهد فرنسا» فى باريس. ولم يغير الفرنسيون الجهاز الضريبى القائم لئلا تختل وظيفة حيوية هى

تحصيل موارد الدولة، وكان على رأسهم كبيــر المباشــرين المعلم جرجس الجوهرى. ولشهرة المعلم يعقوب فى الصــعيد كرائد للتنمية رشحه جرجس الجوهرى مباشرًا لفرقة الجنرال ديزيه التى أمرها بونابرت بمطاردة مراد بك، فتحركت نحــو الوجه القبلى فى ٢٥ أغسطس ١٧٩٨.

كان يعقوب بنشاطه الاقتصادى المحلى وبانخراطه فــى حركة التجارة الجديدة قد تخطى ــ بفضل امتيازات منصبه ــ مضايق القيود العثمانية والمملوكية المتوارثة. نفذ من فجوات عصره إلى مجالات سوق دولية واسعة تناقض شــلل مصــر التى أزْمَن تقطيُعها وتحجيمها. ولكى تنقشع آخــر العقبــات الكأداء من أفق مصر، لم يكن بد من قوة رادعــة تستأصــل شأفة الترك والمماليك، قوة فتيَّة تؤازرها العلوم كهذا الجيش الذى أخرجته أمة ثارت على استبداد ملوكهــا. لقــد شــارك يعقوب فى مقاتلة الأتراك، وها هــو ذا يشــارك فــى خلــع المماليك.

وراعت الفرنسيين منزلة يعقوب فى أرجــاء الصــعيد، وأدهشهم حزمه ونفوذ كلمته؛ فلقد ظن الناس أن يعقوب هــو «السلطان الكبير» وأنه قائد هذا الجيش الهائل الــذى جــرده لحسابه ضد المماليك، لاسيما وقد وقر فى الأذهــان ــ طبقًــا لأوضاع ذلك العهد ــ أن الجيوش تتألف من جنود مرتزقــة. وفى الواقع كان اختصاص يعقوب مقصــورًا علــى التمــوين وتنظيم المعسكرات المتنقلة تنظيمًا ماديًا، إلا أنه أبــدى فــى

المصادمات شجاعة وتنبهًا ومقدرة دفاعية فائقة. وتجلت بطولته فى النزال يوم وَقَعِ بمفرده فى كمين نصبه المماليك ناحية «عين القوصية» ولو تقهقر أمامهم لهلك، فقارعهم، وظل على فرسه يناوشهم بالكر والفر إلى حين وصول طليعة ديزيه (٢٤ ديسمبر ١٧٩٨).

ولما استيقن المماليك ــ مخدموه فيما سبق ــ من تفوقه عليهم، كتبوا إليه من طرف سليمان بك يلتمسون وساطته كى يكف الفرنسيون عن القتال نظير مقاطعة يتنازل عنها مراد بك للجنرال ديزيه، فردّ عليهم يعقوب ناصحًا أن يتقدموا هم بطلب الأمان وأثبت التاريخ صوابه فى تقدير موازنة القوى، فإن مراد بك هو الذى اضطر إلى أن يوقع فى ٥ أبريل سنة ١٨٠٠ معاهدة صلح مع الجنرال كليبر، نصت على تنصيب مراد صنجقا لجرجا «بشرط أن يدفع للجمهورية الفرنسية «الميرى» أى مال الخراج الواجب للسلطان».

١٠- روابط البريد ومحادثات أسيوط:

واستمرت العمليات فى الصعيد ثمانيــة عشــر شــهرًا عصيبًا، تتبع يعقوب خلالها عن كثب سقوط فئـة المماليـك، رغم استنجادهم بالعربان والنوبيين والحجازيين واستصـدار منشورات من السلطان لتأييدهم.

وأثناء المعمعة ـ منذ يناير ١٧٩٩ ـ تـولى يعقـوب مهمة إنشاء خدمة بريدية أساسـية تـربط بـين الحاميـات الفرنسية المتفرقة التى رابطت فى مواقع مختلفة جلا عنهـا المماليك وبين جرجا التى اتخذها ديزيه مقرًا لقيادتـه، فقـام بتشكيل قوافل صغيرة من الهجانة، حدد لها مراحل بمحطـات تتلاقى فيها على التوالى، ووفر لها أن تسير ذهابًا وإيابًا فـى حراسة دوريات مسلحة متأهبة لردع البدو وقطـاع الطـرق الذين استفحل خطرهم، حتى لقد فتكت عصاباتهم ـ قبل شهر واحد ـ بقافلة ضخمة قوامها مائتا تاجر قدموا من الهند عبر البحر الأحمر وسلكوا الطريق المعتاد من القصير إلى قوص.

وكانت مشكلة تأمين القوافل قد تفاقمت وأدت إلى أزمة دولية. فلم تكن اعتداءات البدو أو قطاع الطـرق هـى شـر العقبات التى باتت تعترض تجارة البحـر الأحمـر المتزايـدة الحجم فى أواخر القرن الثامن عشر، بل إن جشـع المماليـك أنفسهم بما فرضوا من الإتاوات على نقل البضائع والرسـائل كان العائق الأكبر، مما أثار قلق البيوت التجاريـة وغضـب

القناصل واحتجاجاتهم العديدة، التى اشتدت لهجتها من جانب بالدوين وماجلون (Baldwin, Magallon) ممثلى إنجلترا وفرنسا. وأعلنت الحملة الفرنسية أنها جاءت لتأديب المماليك.

وضع يعقوب نصب عينيه — وهو العارف بحيوية تنقل القوافل والرسائل — لا أن يتيسر التواصل فحسب، بل أن تنضبط سرعته. فيسافر البريد يوميًا بين المراحل الجنوبية الآتية: من جرجا إلى برديس، ومن برديس إلى فرشوط، ومن فرشوط إلى هو، ومن هو إلى دشنا، ومن دشنا إلى السمطا، ومن السمطا إلى قنا ثم من قنا إلى إسنا. كما يسافر شمالاً من جرجا إلى أسيوط، فالمنيا وبنى سويف.

وإن دل إحكام هذا الجهاز البريدى على حنكة يعقوب التدبيرية ودرايته الاستراتيجية بالأرض، فقد اشتد وعى الصعيدى وهو يضم بلدة إلى بلدة، بأن مصر جسم واحد، وأن المماليك قطعوه إربًا هى «مقاطعاتهم» التى أباح لهم العثمانيون أن يتقاسموها أى أن يتنازعوا عليها ويتطاحنوا لكى تخلوا السيادة فى آخر الأمر للسلطان.

فطن يعقوب إلى آثام ذلك التقطيع المصطنع، وأحس عندما عمد إلى تربيط الأوصال دبيبًا يسرى فى أعضاء كائن حى تتكامل وظائفه شيئًا فشيئًا، وأيقن أن ما يلزم البلاد لكى تبلغ وحدتها المكانية التامة وتسترد بنيتها الأصيلة التى

صاغها نهر النيل ـ وقديمًا سجل التاريخ مولد مصر بتوحيد قطريها ـ هو حكومة شاملة جادة تنطلق من الإحساس باندماج مقومات المجتمع وإمكانياته المتضافرة وتسعى إلى ترشيدها. ولن يمهل التاريخ يعقوب لتحقيق ذلك، وإنما سيسند هذا الدور لمحمد على؛ فسينفق محمد على سنوات حكمه الأولى فى تحطيم قوى اللامركزية؛ حتى يستقيم له بناء الدولة الحديثة فى مصر.

أما يعقوب قبل محمد على ـ وكلاهما خرج من دنيا التجارة ـ فقد أسفر له بوضوح تفتيق الأوضاع البالية من حوله عن بوادر تنظيم مركزى يستخدم العقل فى تصريف الأمور، بل يرتبها فى إطار تفكير فعال يوافق ما «باشره» تلقائيًا من تجديد فى أسيوط عندما خرق الحدود الفاصلة بين المهن ومد خطوط العمل الإنتاجى المتكامل، المنطلق من الأرض إلى السوق ومن الجنوب إلى الشمال. وصدق فى ذلك النشاط عزمه حتى طابقته حياته الخاصة.

ويعود ديزيه إلى أسيوط فى ١٥ مايو ١٧٩٩ فيتخذها مقرًا لقيادته عدة أسابيع. يعقوب هنا رب الدار. والوقت سانح للتداول فى مقدرات الأفق المفتوح بعد انجلاء المماليك. وهو يلمس الفرق بين ما اعتاده من أبهة سليمان بك وأنانيته واستبداده بأتباعه وبين تساوى الفرنسيين فى الخضوع لنظام عام يشملهم، وحرصهم على جدولة ساعات اليوم، وأسلوبهم

الجماعى فى التشاور لحل المشكلات ووضع الخطط واستخلاص القرار المناسب.

وكان ديزيه من أنجب أبناء الثورة الفرنسية، تعادل غزارة ثقافته جذوة حماسه، مما رفعه إلى رتبة الجنرال وهو فى الثلاثين من عمره. ولكنه ظل بسيط الطبع لا يتأمر بعنجهية العسكريين. ويقول زميله الجنرال بليار فى مذكراته عن تلك الفترة: «كنا نجتمع عند الجنرال ديزيه فيعرض كل منا مقترحاته وخططه ويشرح وجهة نظره وآراءه. وكان مدار الأحاديث حول السلام والحرب، والنظم السياسية، وأصل الشعوب". ونوقش الواقع المصرى، وكيف انحطت إلى دركه حضارة عريقة: منذ قرون والحكومات الجائرة ترهق الشعب والأرض. وبالمقارنة بين أمجاد الماضى وتدهور الحاضر وآمال المستقبل، قاس يعقوب — وهو يروى أطرافًا من تجارب أمسه فى عهد على بك الكبير — مدى التغيير الحادث. وما تقييم المسيرة بالنظرة التاريخية المترامية إلى إيجابيات الغد القريب سوى مفهوم «التقدم» — الفكرة التى دفعت الفرنسيين إلى «التغيير» أى إلى الثورة. لقد أذكت تلك الأسمار لدى يعقوب إرادة سياسية. لقى طموحه القديم إلى الحرية ما يدعمه الآن من منطق الواقع، ووجد انطلاقةُ نحو الاستقلال وسائل عملية لبلوغه.

١١ - مفهوم «التمدن» بين يعقوب ورفاعة الطهطاوى:

وفهم يعقوب النموذج المرجعى الذى يتردد على ألسنة هذه النخبة من أبناء الثورة، وهو «التمدن» ـ فبهذه اللفظة سيترجم رفاعة الطهطاوى بعد ربع قرن كلمة Civilisation التى تصدّرت دراساته بمضمونها العام فى باريس، وسيجعل منها الإطار لبرنامج نهضة الوطن. وكانت فكرة التمدن محك القيم فى فلسفات القرن الثامن عشر التى اغتذى بها صانعوا الثورة الفرنسية.

ومن أدل علامات اقتباس «التمدن» لدى المعلم يعقوب أنه لم يكتف بتلبية الحاجات المادية العاجلة كالتموين والمواصلات، بل كان ذواقة لأدبيات «المواعظ والاعتبار» فى أشكالها الجمالية من شعر ومسرح، وذلك جانب أهمله المؤرخون الجادون. أما عن المسرح فقد قدّم يعقوب مساء ٨ فبراير سنة ١٨٠١ بمنزله بالقاهرة، عقب مأدبة عشاء دعا إليها القائد الفرنسى «عبد الله مينو» وكبار الضباط، تمثيل "كوميديا عربية" لا نعرف مؤلفها أو موضوعها أو ممثليها لشدة إيجاز الخبر الذى نشرته عنها صحيفة Le Courrier d' Egypte. ولكن اهتمام المعلم يعقوب بالمسرح سبق على كل حال أول تعريف بهذا الفن ورد فى «تخليص الإبريز» لرفاعة الطهطاوى.

وأما عن الشعر فالقصيدة المنسوبة إلى يعقوب فى رثاء

ديزيه ــ الذى لقى مصرعه بعد مغادرة مصر فى معركة «مارنجو» بإيطاليا (١٤ يونيو ١٨٠٠) ــ ليست من إنشاء يعقوب، وإنما استكتبها الأب رفائيل، كبير مترجمى الديوان، لكى يقوم كذلك بترجمتها إلى الفرنسية. وقد حاول رفائيل فى أبياته الخمسة والثلاثين ــ بعد أن مهد للقصيدة بديباجة تقليدية ووسمها بعنوان «إنا لله وإنا إليه راجعون» ــ أن ينسج على منوال ميمية إبن الفارض الشهيرة:

شربنا على ذكر الحبيب مدامة

سكرنا بها من قبل أن يُخلق الكَرْم

فقال:

ذرفنا على ذكر الحبيب دموعا

سكرنا بها ليوم البعث والحشر

ورغم وحدة البحر فالوزن تغلب عليه الكسور، واللغة ركيكة متكلفة تصطف فيها التعبيرات البلاغية المستعارة من محفوظات قديمة بجوار تراكيب غريبة لا يتضح معناها إلا لمن يردها إلى المصطلحات الفرنسية الشائعة فى منشورات هذه الفترة، والتى نقل الجبرتى بعض نصوصها. وأضاف التناسخ أخطاء هجائية إلى ما يشوب الجمل من أخطاء نحوية. ولا يحق للناقد أن يحاسب يعقوب على مستوى رفائيل وأسلوبه، بل ينبغى أن نعرف فضل «المباشر» التاجر فى إجلال وظيفة الشعر وإجزال العطاء لناظمه، فقد كان الشعر

والشعراء فى عصور الركــود لا يعيشــون إلا علــى هبــات الكبراء. وبمثل ذلك الكرم تطوع يعقوب أن يتحمل ثلث نفقات ضريح يقام لديزيه، وكأنه يريد مواصلة استضافته فى مثــواه الأخير كما استضافه فى أسيوط حيث شكّلت مناقشاتهما أفــق تفكيره وأرست لديه مبادئ مشروع سياسى مصيرى.

١٢- حتمية المقاومة:

تولى يعقوب بعد عودته من الصعيد، فى سبتمبر ١٧٩٩، إدارة النظام المالى فى مصر، إلا أنه لم يستطع تحقيق أى إصلاح تحت ضغط الأحداث التى تلاحقت وأجبرته على تكوين قوة مسلحة.

كان كليبر قد عقد مع ممثلى الدولة العثمانية فى ٢٤ يناير سنة ١٨٠٠ معاهدة العريش التى نصت على جلاء الفرنسيين وجدولته. وطوت الدولتان صحيفة القتال. ولكن الحكومة الإنجليزية رفضت إقرار الاتفاقية فانتهز العثمانيون الفرصة ونقضوا عهدهم. وزحف يوسف باشا – الصدر الأعظم – حتى بلبيس، وتقدمت طليعة جيشه بقيادة ناصف باشا نحو المطرية. وهب الفرنسيون غاضبين فهجموا على الأتراك هجومًا حاسمًا فى موقعة عين شمس (٢٠ مارس ١٨٠٠). وهرب ناصف باشا وبعض رجاله فتسللوا إلى القاهرة ومعهم من المماليك إبراهيم بك والألفى وحسن الجدواى. ويسجل عبد الرحمن الرافعى «ومع أن ناصف باشا كان فى الواقع فارًا من ميدان القتال، وبالرغم من أن وصوله كان بعد أن حلت الهزيمة بالجيش العثمانى، فإن الإشاعات قد طارت فى المدينة بأن الجيش الفرنسى انهزم». وأشعل الهاربون – ليقلبوا الأوضاع – فتنة طائفية احتدمت ضد الأقباط – ويلقى الجبرتى المسئولية على نصوح باشا الذى

نادى: «اقتلوا النصارى وجاهدوا فيهم"، ويُبرز دور الحجازية والمغاربة فى ارتكاب المنكرات من نهب وقتل، ومنهم من قطع رأس البنية الصغيرة طمعًا فيما على رأسها وشعرها من الذهب». وارتاع بعض أغنياء الأقباط فغادروا الحى ولجأوا إلى دور بعض أصدقائهم المسلمين فى مصر القديمة. ولم يتزحزح يعقوب بل تحصن فى الحى ونظم الدفاع عنه والعيش فيه بشجاعة وحكمة، طوال حصار دام عشرين يومًا ويقول الجبرتى: «أما يعقوب فإنه كرنك فى داره بالدرب الواسع جهة الرويعى، واستعد استعدادًا كبيرًا بالعسكر والسلاح، وتحصن بقلعته التى كان شيدها بعد الواقعة الأولى (أى ثورة القاهرة الأولى أيام بونابرت)، فكان معظم حرب حسن بك الجداوى معه».

وأسفرت المحنة عن تأليف جيش من الأقباط، نظمه يعقوب على نفقته الخاصة، وجمع فى صفوفه شبابًا من القاهرة ومن الصعيد. وتلك ظاهرة فذة فى تاريخ مصر: جيش وطنى لاحظ شفيق غربال أنه «أول جيش كوّن من أبناء البلاد بعد زوال الفراعنة». وارتدى هؤلاء الجنود زيًا خاصًا، ودربهم ضباط فرنسيون على أساليب الدفاع والقتال الحديثة، تحت إشراف المعلم يعقوب، الذى قلده كليبر قيادة الفيلق ملقبًا إياه بلقب أغا.

وقد ذهب بعض الكتاب إلى إدراج هذا الفيلق القبطى فى قائمة التشكيلات التى استحدثها بونابرت فى مصر وضمها إلى

وحدات جيشه للاستعاضة بها عما كان يفقده من الرجال واختصاصاتهم منذ انقطعت صلته بفرنسا بعد شهر واحد من نزوله مصر إذ حطم الإنجليز أسطوله فى موقعة إبى قير البحرية (أغسطس ١٧٩٨). كانت تلك الفرق كما تدل عليها أسماؤها ـ «الإنكشارية»، و«المماليك»، و«اليونان»، «السوريون» ـ تتشكل من أغراب نزحوا إلى مصر وافدين من مختلف أنحاء الإمبراطورية العثمانية؛ فهم أشبه بالجنود المرتزقة فى العصور السابقة. ويكفى لتمييز الفيلق القبطى أنه لم يظهر إلا مؤخرًا ـ فى إبريل ١٨٠٠ ـ أى بعد انقضاء ثلاثة أشهر على تقرير جلاء الفرنسيين فى معاهدة العريش، وأنه تعبير عن مقاومة حتمية ضد المماليك والترك فى سياق علاقة سياسية ترجع إلى ما قبل الحملة الفرنسية، وأنه تنظيم صدر عن تمويل مالى ذاتى، وستتجلى هذه الأصالة فى مشروع استقلال مصر الذى أصبح هدف المعلم يعقوب.

كم بلغ عدد رجال الفيلق القبطى؟ تختلف تقديرات المعاصرين: فالجبرتى يتخيل «نحو الألفين»، ونقولا الترك يذكر ٨٠٠ من الجنود والضباط. ولعل أكبر عدد بلغه الفيلق بالتحديد هو ٨٩٦ جنديًا وضابطًا، حسب إحصاء وجدناه فى المحفوظات الفرنسية، تاريخه ٢٣ سبتمبر ١٨٠٠. وكان يعقوب ـ الذى حاز رتبه «جنرال» فى مارس ١٨٠١ ـ يفخر بتغلب ضباطه وجنوده، ومعظمهم من أبناء الفلاحين،

على جميع الصعاب التى اعترضت طريق تعليمهم. وبتعبير الجبرتى: «صيّرهم عسكره وعزوته، وجمعهم من أقصى الصعيد. وهدم الأماكن المجاورة لحارة النصارى التى هو ساكن فيها خلف الجامع الأحمر وبنى له قلعة وسورها بسور عظيم وأبراج وباب كبير يحيط به بدنات عظام. وكذلك بنى أبراجا فى ظاهر الحارة جهة بركة الأزبكية، وفى جميع السور المحيط والأبراج طيقانا للمدافع وبنادق الرصاص، على هيئة سور مصر الذى هدمه الفرنساوية. ورتب على باب القلعة الخارج والداخل عدة من العسكر الملازمين للوقوف ليلاً ونهارًا وبأيديهم البنادق على طريقة الفرنساوية».

ويحلل شفيق غربال أهمية إنشاء ذلك الجيش فى تلك الآونة من تاريخنا القومى تحليلاً واضحًا: «كان وجود الفرقة القبطية إذن أول شرط أساسى يمكن رجلاً من أفراد الأمة المصرية يتبعه جند من أهل الفلاحة والصناعة من أن يكون له أثر فى أحوال هذه الأمة إذا تركها الفرنسيون وعادت للعثمانيين والمماليك يتنازعونها ويعيثون فيها فسادًا، على الرغم من أنه لا ينتمى لأهل السيف من المماليك والعثمانيين. وبغير هذه القوة يبقى المصريون حيثما كانوا بالأمس: الصبر على مضض أو الالتجاء لوساطة المشايخ أو الهياج الشعبى الذى لا يؤدى لتغيير جوهرى، والذى يدفعون هم ثمنه دون سواهم. وهنا الفرق الأكبر بين يعقوب وعمر مكرم. يعقوب

يرمى إلى الاعتماد على القوة المدربة والسيد عمر يعتمد على الهياج الشعبى الذى تسهل إثارته ولا يسهل كبح جماحه والذى قد يصل سريعًا لتحقيق أغراض حاسمة ولكنه لا يصلح قاعدة للعمل السياسى الدائم المثمر. فكما أن العامة سريعة الهياج فى أوقات الخلل واضطراب الحكم فهى أيضًا سريعة القنوط خصوصًا إذا اصطدمت بجند مسلحين حتى ولو كان أولئك الجند من نوع ما كان فى مصر فى أوائل القرن التاسع عشر من ترك وألبانيين ومن ماثالهم. وقد رأينا ما كان من أمر السيد عمر مكرم لما وجد أمامه محمد على لا خورشيد. هذا الفرق بين الأداة التى اختارها يعقوب وتلك التى اختارها السيد عمر مكرم، ليس فى الواقع إلاَّ مظهرًا لفروق أعمق؛ إذ ما حاجة هذا السيد نقيب الأشراف إلى جيش، والرجل لا يتصور مصر إلا خاضعة لحكم المماليك تحت سيادة السلطان ولا يرمى إلى أبعد من أن يملى إرادته على القائمين بالأمر فيها مدافعًا عن أفراد الرعية كلما زاد الفساد؟ وهو لهذا يكفيه قيام أهل القاهرة واجتماع كلمة العلماء. أما يعقوب فله شأن آخر. إذ أنه لا يريد عودة المماليك والعثمانيين وإنما يعمل على أن تكون لفئة من المصريين يد فى تقرير مصير البلاد بدلاً من أن يبقى حظهم كما كان فى الحوادث الماضية مقصورًا على التفرج أو الاشتراك فى نهب المهزومين: ذكر الجبرتى فى حوادث المحرم سنة ١٢١٨ فى كلامه عن اشتباك الألبانيين بأتراك الوالى العثمانى خسرو ــ ذلك

الاشتباك الذى انتهى آخر الأمر بولاية محمد على، ذكر أن الألبانيين كانوا يقولون للعامة من أهل القاهرة: «نحن مع بعضنا وأنتم رعية فلا علاقة لكم بنا». أنتم رعية. تخضعون لمن ينتصر منا. هذا كل ما لكم!

أراد يعقوب أن يكون الأمر غير ذلك. وعول على أن تكون القوة الحربية المصرية الجديدة مدربة على النظم الغربية. فكان سباقًا إلى تفهم الدرس الذى ألقاه انتصار الفرنسيين على المماليك. أو قل إلى إدراك ما أدركه محمد على بعد قليل من أن سر انتصار الغربيين فى جودة نظمهم وبخاصة نظمهم العسكرية».

١٣- بعد جلاء الفرنسيس: مظهر التقديس:

تحيلنا كلمة «الفرنسيس» إلى لغة الجبرتي، ولاسيما إلى مكان السجعة الذى أفرده لها فى عنوان كتابه «مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس». وهو الكتاب الذى بادر بإهدائه إلى الصدر الأعظم يوسف باشا ممثل الدولة العثمانية التى عادت لاحتلال مصر. ويروى فيه عن الحملة الفرنسية ما روى فى تاريخه المعروف «عجائب الآثار فى التراجم والأخبار»، غير أنه اشتد هنا فى لهجته والتزم هجاء الفرنسيين وأعمالهم وتقبيح كل ما يتصل بهم. عمد إلى ذلك ليبرئ ساحته، فقد تعاون مع الفرنسيين عضوا فى الديوان أيام الجنرال مينو الذى خلف كليبر عقب ثورة القاهرة الثانية، وكان مينو من أنصار احتلال دائم لمصر. وبالمثل سارع الشيخ عبد الله الشرقاوى ـ رئيس الديوان منذ أسسه بونابرت ـ إلى تدبيج مخطوط رفعه للصدر الأعظم المذكور وعنونه «تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من الولاة والسلاطين». ويظهر فى تعريفه لمذهب الفرنسيين دفاعه عن العلماء – حفظة الشرع – وما يؤدون من وساطة تقليدية بين الحاكم والمحكوم:

«إنهم (الفرنسيون) فرقة من الفلاسفة إباحية طبائعيه... ينكرون البعث والدار الآخرة وبعثة الأنبياء... ويجعلون منهم مدبرين يدبرون الأحكام يضعونها بعقولهم

ويسمونها شرائع... ولذا جعلوا فى مصر وقراها الكبار دواوين... وكأن فى ذلك رحمة بأهل مصر، فإنهم جعلوا من حملة ديوانها جماعة من المشايخ وصاروا يراجعونهم فى بعض أشياء لا تليق بالشرع». «مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس».

ورحب الوزير التركى ــ الذى لا يفهم العربية ــ بكتاب الجبرتى، وحمله إلى دار السلطنه حيث أمر بترجمته، فراج الكتاب بين الأتراك أكثر من رواجه بين المصريين. وكافأ الجبرتى فى صورة مرتب سخى عن عمل أسنده إليه هو تحرير التقاويم لاشتغاله بالفلك.

ومنطق الجبرتى والشرقاوى بسيط مكشوف، يتجلى فى فاتحة «مظهر التقديس»: «حمدا لمن جعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا، وجعل الدولة العثمانية، والمملكة الخاقانية بهجة الدين والدنيا».أى أن القدسية كامنة فى الدولة العثمانية، فهى الخلافة التى تستمد من الله شرعية سلطتها، وليس للعقل أن يجادل فى امتيازها.

وينطوى هذا الخطاب على بديهية العلاقة بين علماء «كلمة الله» وبين تلك السلطة العليا الممثلة فى المملكة الخاقانية. وهى علاقة بناها الحكم منذ قرون على تبادل المصالح بين الجانبين من وراء ستار الدين.

أما الدولة العثمانية فحريصة على اعتراف العلماء لها بالخلافة. فالسلطان التركى حفيد الغز لا سليل قريش. ولكنه يهيمن على المنطقة بوصفه «خليفة المسلمين» و «أمير المؤمنين» و «خادم الحرمين». وتاريخيًا المغول قد قضوا على الخلافة العباسية ببغداد، فاخترع بيبرس من بين اللاجئين العباسيين إلى مصر خليفة أسماه المستنصر واكتسب من إيوائه سطوة واسعة على العالم الإسلامى. وربىَّ المماليك فى كنفهم أولئك الخلفاء الصوريين حتى أسر آخرهم على يد سليم الأول عندما دخل مصر سنة ١٥١٧، ونقل ذلك «المتوكل» إلى اسطنبول، فسجنه «لسوء سلوكه»، ثم قيل إن المتوكل نزل له عن ألقابه. وتلك رواية محدثة، أذيعت سنة ١٧٨٨ (أى بعد اهتزاز الدولة العثمانية: استقلال على بك الكبير، انفصال الوهابين، هجمات الروس إلخ). سيتشبث السلاطين على كل حال بوهم الخلافة حتى يبدده كمال أتاتورك سنة ١٩٢٤. والغريب أن يحاول الملك فؤاد فى مصر أن يرث هذا اللقب ــ بتأييد الإنجليز الذين أرادوا خلاله بسط نفوذهم ــ رغم إدانة الشيخ على عبد الرازق فى كتابه الحاسم «الإسلام وأصول الحكم» ذلك المفهوم «عرشا لا يرتفع إلا على رؤوس البشر، وتاجا لا قوة له إلا بما يغتال من قوّتهم».

وأما «علماء» مصر فى فجر القرن التاسع عشر فقد استطابوا أن تعلو مراتبهم نتيجة ضعف الإدارة العثمانية، وأن

يواصلوا التمتع بامتيازاتهم فى ممارسة «الالتزام» كالمماليك (فالشرقاوى ـ السرسى وغيرهما من شيوخ الأزهر كانوا من أصحاب التزامات الأرض). وكان تفوقهم على العثمانيين مضمونا إذ هم معلمو الشريعة الإسلامية ومؤولوها، ولا مكان لسواها قانونا يمكن الاسترشاد بمنظومته.

مظهر التقديس إذن «مظهر» لا مخبر، وظيفته الاجتماعية تشمل التستر على استغلال النفوذ واستنزاف «الرعية» – هذه الكلمة التى تعنى «القطيع» من البهائم. وفى التمسك بهذا المظهر، وجعله قيمة السلوك، بإضفاء قوة المرجعية المطلقة إليه، إلغاء للمعارضة وطمس للتفكير فى مقاومة الظلم.

وقد احتكر «العلماء» وظيفة التوسط لدى الباشوات والبكوات «لرفع المظالم» مما يوطد فى نظام الحكم مكانتهم ومنافعهم الطبقية التى صنفتها اجتماعيا واقتصاديا دراسات عفاف لطفى السيد. وصفحات الجبرتى حافلة بمشاهد ذلك التواطؤ المستمر بين الفئات الحاكمة، وحسبنا رواية الجبرتى فيما يلى لمساومة نشبت بين الباشا والعلماء (سنة ١٢٢٣هـ) سرعان ما طواها المنتفعون جميعا فى عباءة السلف الصالح – جامع عمرو بمصر القديمة حيث لحق بهم نقيب الأشراف عمر مكرم تتبعه الرعية: وبذلك تتكامل صورة المجتمع فى مصر بعد جلاء «الفرنسيين» وتتضح آليات إخضاعه «لمظهر التقديس».

واجتمع المشايخ عند الباشا، فقال لهم: «اعملوا استسقاء وأمروا الفقراء والضعفاء والأطفال بالخروج إلى الصحراء وادعوا الله بدلا من أن يصلح الولاة الرى. فقال له الشيخ الشرقاوى: ينبغى أن ترفقوا بالناس وترفعوا الظلم. فقال: أنا لست بظالم وحدى، وأنتم أظلم منى، فإنى رفعت عن حصتكم (من الالتزام) الفرض والمغارم إكراما لكم وأنتم تأخذونها من الفلاحين، ثم اتفقوا على الخروج. والتقيا فى صبحها بجامع عمرو بن العاص لكونه محل الصحابة والسلف الصالح يصلون به صلاة الاستسقاء ويدعون الله ويستغفرونه ويتضرعون إليه فى زيادة النيل. وبالجملة ركب السيد عمر مكرم والمشايخ وأهل الأزهر وغيرهم والأطفال واجتمع عالم كثير وذهبوا إلى الجامع المذكور».

١٤ - يعقوب يرفض عودة السيادة العثمانية:

رفض يعقوب عودة السيادة العثمانية وحكم المماليك، وهو أدرى بذلك المزيج من التعسف والتناحر والنهب. وحزم أمره على مغادرة مصر مع انسحاب الفرنسيين. لم يتخير الهجرة «للخلاص بنفسه فمثله - كما يقول شفيق غربال - ممن يمكنهم تصفية الحساب الماضى مع العثمانيين المنتصرين»، وإنما خرج لتحقيق مشروع خطير هو السعى لدى الحكومات الأوربية لتقرير استقلال مصر؛ فلقد فطن إلى عبرة الأحداث التى دارت والتى انخرط فيها منذ عهد على بك الكبير، وأدرك أن دولة الترك لولا الفرنسيين لما انزاحت عن أرض مصر ولولا الإنجليز لما عادت لامتلاكها. مقاليد السياسة إذن لم تصبح فى أيدى الأتراك والمماليك، بل أصبحت بين يدى هاتين الدولتينِ الأوربيتين القادرتين. هكذا تطورت تجربته الاقتصادية أولاً، والعسكرية ثانيًا، إلى مشروع سياسى شامل.

كان من شروط معاهدة التسليم التى أبرمها الجنرال الفرنسى بليار مع قائد الجيش الإنجليزى وممثلى الدولة العثمانية (٢٧ يونية ١٨٠١) أنه يحق لأى من سكان مصر على اختلاف أجناسهم إذا رغب اللحاق بالجيش الفرنسى فى رحيله، أن يرحل معه، ولا يجوز بعد رحيله أن تؤذى عائلته أو تصادر أملاكه». وخصصت للمعلم يعقوب وعائلته، ولمن

رضى من رجاله أن يتبعه، البارجة الإنجليزية «بالاس» Pallas. وما كاد حسين باشا القبطان يعلم فى ميناء أبى قير بتأهب يعقوب للسفر حتى كتب إلى الجنرال بليار راجيا أن يثنى يعقوب عن عزمه، مؤكدا عهود الأمان التى وردت فى اتفاقية الجلاء، مغدقا على يعقوب عفوه وحمايته، ومتذرعا باستبقائه للانتفاع بخبرته فى شئون الإدارة المصرية ولكنه عبثا ألح فى طلبه، فسأل بليار أن يرسل إليه يعقوب شخصيا ليعطيه الضمانات الكافية فى مقابلة خاصة. ورغم انعدام ثقة يعقوب فى عدوة حسين باشا القبطان، فقد زاره ليبلغه تصميمه على الرحيل. وأبحرت البارجة «بالاس» فى السادسة والنصف من مساء يوم الاثنين ١٠ أغسطس سنة ١٨٠١.

وكتب ربان البارجة جوزيف إدموندز Joseph Edmonds رسالة رفعها إلى وزير البحرية البريطانية (Right Honorable Earl Saint - Vincent) بتاريخ ٤ أكتوبر ١٨٠١ يقول فيها: «أقلّت البارجة «بالاس» الموضوعة تحت إمرتى، من مصر، رجلا قبطيا، ممتاز الشخصية، وخطير الشأن بوصفه أحد زعماء تلك الطائفة وقد أبديت نحو هذا المغترب التعس بعض لفتات العطف البسيطة، فشجعه ذلك على أن يحدثنى عن بلاده. صرح لى بأن أية حكومة كانت، هى فى رأيه أفضل لمصر من حكومة الأتراك؛ وبأنه انضم إلى الفرنسيين بدافع الرغبة الوطنية فى تخفيف عذاب مواطنيه، فخذلهم الفرنسيون والآن أصبح المصريون يحتقرونهم كما

احتقروا الأتراك؛ وبأنهم لا يزالون يأملون، بوساطة الحكومات الأوربية، أن يصلحوا الأمر فى بلاده، وبأنه يرى أن رحلته إلى فرنسا ستؤدى إلى هذه النتيجة. لقد حمله الفرنسيون على أن يعتقد أن بلادهم هى أقوى دول أوروبا؛ وكانت قوة إنجلترا البحرية شبه مجهولة لديه، ومع ذلك فقد كان يعرف أنه بغير تأييد إنجلترا فإن رغبته فى أن يرى مصر تتمتع بالاستقلال مقضى عليها بالفشل».

وليس التهوين من شأن فرنسا مع الاعتراف بقوة إنجلترا البحرية ـ فى خطاب مسئول بريطانى إلى رئيسه الأعلى ـ سوى التعبير من جانب يعقوب عن صدمة اكتشافه لأسطول الإنجليز فى لقائه بأول إنجليزى هو ربان السفينة. وأما مشروع يعقوب فمضمونه أن الدولة العثمانية قد باد عصرها، ولكن بريطانيا لن تستطيع الاستيلاء على مصر دون أن تتعرض للعقبات التى أدت إلى فشل الاحتلال الفرنسى (وهذا ما سيؤكده التاريخ سنة ١٨٠٧ عندما تنهزم حملة «فريزر» على رشيد رغم تحالف الإنجليز مع الألفى بك). لن يضمن لإنجلترا المسيطرة على البحر ولفرنسا المسيطرة على البر مصالحها فى مصرـ الثرية بمواردها الزراعية وبتلاقى تجارات الهند وأفريقيا على أرضها ـ إلا مصر نفسها إذا استقلت دوليا. ومن شأن حكومة وطنية إذا قامت لا على مبدأ الاستبداد التركى بل على العدل وبهدف إصلاح معيشة الناس، كحكومة شيخ العرب همام فى الصعيد، أن يوطدها الامتنان

والاحترام والحب. وكيف يدافع المصريون عن اســتقلالهم؟ لا نتوقع أن يكون دفاعهم لرد اعتداء دولة أوروبية إلا بعد زمن طويل، يستكمل خلاله الجيش الوطنى قدرته للرد على مثل هذا الاعتداء. وفى البداية يستطيع المصــريون أن يســتخدموا ــ على نفقتهم ــ عدة آلاف من الجنود الأجانب كنــواة للقــوة الوطنية، بها يسحقون المماليك ويصدون الأتــراك، ولــو أن الذهب يكفى لردع الأتراك المتكالبين على المال دائما.

وفجأة يصمت يعقوب. مات على أثر إسهال حاد قضــى عليه فى اليوم السادس من الرحلة (١٦ أغســطس ١٨٠١) لاشك بفعل قدح القهوة التركية التى ضيفه بها حســين باشــا القبطان قبيل سفره. وكانت البارجة بقرب جزيرة رودس. ولم يُلقَ جثمانه فى البحر كما تقضى بذلك تقاليد السفن بل حفــظ ــ لمنزلته الخاصة – حتى وورى الثرى فى جبانــة «ســان مرتان» بمرسيليا بعد تشييع جنازته فى احتفال مهيب.

وعندما رست البارجة فى ميناء طولون (١٧ســبتمبر) سلم «لاسكاريس» – مترجم يعقوب – مذكرة بمواد المشروع لربان البارجة الإنجليزية جوزيف إدموندز الذى رفعهــا إلــى حكومته مع رسالته الإيضاحية. وقد نشر هذه الأوراق المؤرخ الفرنسى جورج دوان G. Douin سنة ١٩٢٤، وكان شــفيق غربال قد وقف عليها فى محفوظات الخارجية البريطانية أثناء إعداد رسالته للدكتوراه، فترجمها إلى العربية ونشرها ملحقا لدراسة بعنوان «الجنــرال يعقــوب والفــارس لاســكاريس

ومشروع استقلال مصر فـى سـنة ١٨٠١» (دار المعـارف ١٩٣٢)، ثم ترجمها من جديد لـويس عـوض فـى كتابـه «المؤثرات الأجنبية فى الأدب العربى الحديث - الجزء الثانى: الفكر السياسى والاجتماعى» (دار المعرفة ١٩٦٣).

١٥ - يعقوب ولاسكاريس: نهاية الخلط بينهما:

تطرح هذه الوثيقة التى سجل فيها لاسكاريس مواد مشروع يعقوب بعد وفاته إشكالية النقد التاريخى للنصوص: فكيف نفصل بين آراء يعقوب الأصيلة وبين تصورات لاسكاريس التى ربما اختلطت بها؟ لقد تهور البعض فى القرن العشرين فنسبوا دون تمحيص إلى لاسكاريس ذلك المشروع بحذافيره. ولكن قراءة هذه الوثيقة فى سياقها التاريخى من المكاتبات التى تناولت الموضوع، واستقصاء آثار يعقوب ولاسكاريس للاستدلال على تجارب كل منهما واتجاهه، ثم إخضاع النص للتحليل اللغوى، كل ذلك أتاح لنا حل العقدة. واعتمدنا فى البحث على محفوظات وزارتى الخارجية والداخلية بباريس، ووزارة الحربية بفانسين، وعلى محفوظات بلدية مرسيليا، ومحفوظات إقليمها (Archives Departementales des Bouches - du - Rhone)، مع الاسترشاد بمذكرات المعاصرين ومجموعات الصحف.

ويبدو التناقض بين الرجلين من أول وهلة فى الرسالة التى أرفقها بالوثيقة جوزيف إدموندز . فهو يشهد بمهابة يعقوب، ورجاحة شخصيته ونفوذه، وجدية محادثاته، بل وبحرصه على إبلاغ موضوعها إلى القائد العام ومنه إلى الحكومة البريطانية، وعلى تعهد له بعدم إفشائها تحسبا لعواقب الأمور. أما عن لاسكاريس فيقول: «إنه ذو عقلية

متحفزة الخيال، وأظنه من أهل البيمونت (شمال إيطاليا)، ويقال إنه كان من فرسان مالطة الذين غادروا الجزيرة مع بونابرت... ولم أفلح فى أن أتبين هل هو عضو من أعضاء الوفد أم أن مهمته مقصورة على السكرتارية والترجمة». مقابل الثقة فى يعقوب ومسئولياته، يثير لاسكاريس حيرة جليسه واستفهامه. ويتفق تقدير الربان الإنجليزى لكليهما مع معلوماتنا السابقة عن ماضى يعقوب، ومع تحرياتنا اللاحقة عن نشاط لاسكاريس.

تيودور لاسكاريس يزعم أنه سليل أباطرة بيزنطة، وفارس من فرسان مالطة. والثابت لنا أن قيادة الحملة الفرنسية عينته فى مصر مهندسا معماريا للإشراف على المبانى التى تحتلها. فتعلم بمخالطة المصريين لغتهم وعرف أحوالهم. ومن أفانينه فى بعض رسائله إلى الجنرال مينو صورة مدينة عظيمة يشيدها فى حضن النيل بين فرعى الدلتا تصبح عاصمة لأفريقيا وأكبر سوق للتجارة فى العالم، ويطلب التصريح له بإنشائها. إن الحلم بمستعمرة ذهبية يراود لاسكاريس فى معظم شطحاته، مما يفرض علينا مضاعفة الحذر من نثره فى مقام الحديث عن مصر المستقلة.

بمثل هذه العقلية لم يكن بد من أن ينحرف طريق لاسكاريس عن أهداف يعقوب. ولكن لاسكاريس واصل خدمة المصريين إلى أن وقعت فرنسا معاهدة إميان فى ٢٧ مارس ١٨٠٢، وأقرت عودة مصر للباب العالى بدلا من أن تنص

الدول على استقلال مصر كما تمنى يعقوب الصريح. وفـى ٤ مايو ١٨٠٢ أخرج لاسكاريس مذكرة كتبها بعنوان: «هل من المفيد لفرنسا أن تقيم إمبراطورية الشـرق؟» دعـا فيها الحكومة الفرنسية إلى التحرك لاستيطان شـواطئ البحـر الأسود. والطريف أن زوجة لاسكاريس كانـت مـن أهـل جورجيا. وأما ما يعنينا فهو العبارة التالية التـى وردت فـى رسالة لاسكاريس المؤرخة ٩ مايو ١٨٠٢ والمرفقة بمذكرته تلك إلى الجنرال مينو: « كنت أخشى أن أفسد قضـية مصـر والمصريين لو أننى منذ وصولى إلى باريس أعلنـت الخطـة التى اصطلحنا عليها» - يعنى خطة مشـتركة اتفـق عليها الاثنان، لاسكاريس ومينو ــ وهى خطة تناقض «قضية مصر والمصريين». وهكذا يعترف لاسكاريس بموضوعية المشروع المصرى.

وقد توخى الربان جوزيف ادمونـدز تـدقيق الضـابط البحرى فى نقل مبادرة يعقوب إلى رئاسة الدولة البريطانيـة. فروى كيف فاتحه الرجل الوقـور بالحـديث فـى المسـألة المصرية، ولخص أقواله - وهو الذى لم يعرفه من قبل - بما ينطبق على واقع يعقوب الذى نعرفه، وما انتهت إليه تجربته بين جشع العثمانيين المالى، وعنف التخريب المماليكى، وفشل الحملة الفرنسية لتفوق الأسطول الإنجليزى. وذلك هو جوهر الوثيقة التى بنت على تلك الأسس حججها فى استقلال مصـر وحيادها.

ونلتقط فى صلب النص إشارات مرجعية مستمدة من دراية المعلم يعقوب بأولوية التجارة الدولية المجزية التى يجتذب موقع مصر تياراتها من الهند وأواسط أفريقيا، وبمصالح فرنسا وإنجلترا الحيوية فى تدفق هذه التجارة عبر البحر الأبيض المتوسط. ونقرأ عن اقتدائه فى الحكم الداخلى بنموذج همام: «أليس أى نظام أفضل من الطغيان التركى؟ فلتكن الحكومة الجديدة عادلة حازمة وطنية، كما كانت حكومة شيخ العرب همام فى الصعيد ــ وقد حدثتك عن تاريخه ــ فهى بالتأكيد ستكون موضع الاحترام والطاعة والحب». ولن ينى الصعايدة عن ذكر نظام همام بالإعجاب، ومنهم رفاعة الطهطاوى الذى سيتوسم فيه ــ بعد أن عرف فرنسا ــ نظام «جمهورية التزامية». ومن أسماء الأعلام الواردة كذلك فى النص اسم مراسل يتعامل معه يعقوب شخصيا فى التجارة الخارجية هو الكونت «أنطون قسيس» المقيم فى تريستا. وكان أنطون قسيس من أنشط رجال جمرك الإسكندرية سابقا، ثم خدم دولة النمسا فى إحياء حركة السويس التجارية فقد كانت تلك «الإمبراطورية الرومانية المقدسة» تلتمس مكانا لها على طريق الهند، ومنحه الإمبراطور جوزيف الثانى لقب كونت، وأخيراً استقر فى ميناء تريستا حيث مد خطوط التصدير والاستيراد المتصلة بالشرق. وتمثل سيرته طور اندماج مصر الفعلى فى السوق العالمية بدافع التوسع الاقتصادى الأوروبى، الذى اتخذ فى نهاية القرن الثامن عشر

من رجال الجمارك وكبار التجار ذوى النفوذ عند المماليك أطرافًا فى المفاوضة والتعاقد، فهم القائمون عمليًا بتنفيذ الشحن وتأمين الطرق و«الوكالات»؛ لذا كان المعلم يعقوب أهلا للمفاوضة السياسية مع سلطات الدول، وهو الخبير بمنتجات الأرض المصرية، وقيمة العملات الذهبية والفضية الأوروبية وطرق القوافل والتواصل التى تخترق بلاده وأصناف السلع المتدفقة من الجنوب ومن الشام ومن موانئ شمال البحر الأبيض المتوسط، فضلا عن خبرته العسكرية القيادية.

وفكرة الحياد السياسى لمصر ـ عماد المشروع ـ ما كانت لتخطر على بال لاسكاريس. فمعناها بلغة عصرنا «عدم الانحياز». وقد اختمرت فى ذهن يعقوب عندما أراد الخروج من الاستعمار التركى الذى فرض على مصر الانكماش والضمور فوجد نفسه فى قلب الدوامة السياسية الدولية. لاذ بالتوازن ردا على الاستقطاب الثنائى الذى نزعت إليه القوتان العظميان إذ ذاك، فرنسا وبريطانيا، فهل علم أن مصر الحرة فى القرن العشرين ستبدع «الحياد الإيجابى» وتتزعم حركة «عدم الانحياز» بين الكتلتين السوفيتية والأمريكية؟ إنها حكمة عريقة نابعة من عبقرية المكان كما سيقول جمال حمدان الذى أبرز فى دراسة شخصية مصر «أن فكرة التوسط كامنة فى موقع مصر الحضارى». وبالرجوع تلقائيا لهذا المبدأ الراسخ لدى المصريين، قيم محمد فهمى عبد اللطيف ـ وهو من

محققى كتاب الجبرتى «مظهر التقديس» ـ أصالة دور المعلم يعقوب، فى مقال سبق حركة عدم الانحياز بنحو عشرين سنة:

«لعب هذا الرجل الداهية المغامر فى تاريخ مصر دورا واسع النطاق. وكانت له فى تدبير الأمور وتطور الحوادث آمال واسعة إلا أن الأمور سارت على غير ما كان يشتهى ويرغب. ولعل هذا الرجل أول سياسى مصرى فكر فى جعل المسألة المصرية مسألة دولية، على أن تستقل مصر استقلالا تاما عن الحكم العثمانى، وأن تكون باستقلالها هذا واسطة لكبح أطماع فرنسا وإنجلترا، وهما الدولتان اللتان كانتا تتصارعان على توطيد النفوذ فى مصر وفى حوض البحر الأبيض المتوسط... يعقوب لم يقصد إلى الإقامة فى تلك البلاد متمتعا بالرفاهية والأمان، ولكن كان فى نيته أن يثير قضية مصر فى المعترك الدولى وأن يفاوض هو ومن معه فرنسا وإنجلترا على خطة لاستقلال مصر عن الحكم العثمانى وضمان حسن الصلة بينها وبين فرنسا وإنجلترا» (جريدة «البلاغ» ٢٢/١٢/١٩٤٧).

١٦ - مات جنود مجهولون: وأسفر وجه مصر:

أثبت ربان البارجة «بالاس» فى تقريره عن ركابها أن عددهم بلغ ٣١٠، منهم ٨٠ فرنسيا والباقون من الأقباط. وفى «إحصاء الأشخاص الذين تبعوا الجنرال يعقوب» بتوقيع المستشرق جوبير Jaubert فى مرسيليا ـ وتلك قائمة من ١١٥ اسما ـ نتعرف على عائلة يعقوب: أخيه حنين، وزوجته مريم، وابنته منه، وأمه غزال، وأخته حنونة، وأخت زوجته لوسية؛ ثم العقيد غبريال سيداروس ابن تقلة شقيقة يعقوب، مع زوجته مريم وابنته راحيل وابنه إبراهيم وأخته وردة. ولا يوجد إحصاء شامل بالألف وخمسمائة مصرى وشامى ويونانى الذين توقعت الحكومة الفرنسية وصولهم.

ولم يكن لحنين من قوة الشخصية والمواهب ما تميز به أخوه يعقوب رئيسا لوفد مصرى يريد أن يفاوض الدول للحصول على الاستقلال ـ هذا الوفد وإن لم تتح له الظروف أن يتشكل رسميا كان يضم من حول يعقوب عبد العال أغا وبعض التجار نيابة عن أنصارهم العديدين. فى مصر (وثيقة ١٨٠١/١٠/٢٥) وكان وكيله «نمر أفندى» حسب توقيع الرسائل التالية لوفاة يعقوب - ولعله الترجمان «لطفى نمر» الذى استعان به لاسكاريس واستعار اسمه لكى يحتفظ هو بمشروعاته الخاصة.

وظل مبدأ الاستقلال حيا، فقد كتب المصريون حين

نزلوا المحجر الصحى بمرسيليا إلى بونابرت: «مُرْ بأن تكون مصر مستقلة عند عقد معاهدة الصلح العامة»، وإلى وزير خارجيته يلتمسون «إبادة الطغيان الذى حاق بهم من جديد» (١٨٠١/٩/٢٣). وبقوة الاندفاع الأول كرر حنين طلب مقابلة بونابرت. ثم غابت من الأوراق كلمة «المفاوضة» وصفة «المفاوضين» وظهرت كلمة «اللاجئين».

لم يحتمل بعضهم الغربة فرجعوا إلى مصر، حيث انتظرتهم سيوف الأتراك. وتفرع الذين استقروا بفرنسا ثلاثا: طائفة التجار الميسورين الذين واصلوا الأعمال الاقتصادية واندمجوا فى الطبقة الفرنسية الوسطى، وطائفة الفقراء الذين قررت الحكومة بعد لأى أن تصرف لهم إعانات ضئيلة، وطائفة العسكريين الذين استخدمهم نابليون فى حروبه فبقى ذكرهم فى سجلات الجيش، بينما تشح المعلومات عن المدنيين. ولكن المختصين «بالأنساب» من مؤرخى منطقة مرسيليا استخلصوا أخيرا بدراسة شهادات الزواج والوفيات حتى سنة ١٨٣٣ أن عدد أولئك الشرقيين ناهز الألف إذ ذاك ضمن أهل مرسيليا المائة ألف أى بنسبة ١%.

فرز ضباط نابليون مجموع من وصل من الرجال، واختاروا أحسنهم لتشكيل فرقتين: أطلقوا على الأولى اسم «المماليك»، ورصدوا لهؤلاء الفرسان نفقات الجياد والزى الشرقى بالسراويل والصديريات المزركشة والعمائم الخضراء،

فكانوا مفخرة الإمبراطور، ومنهم حرسه، وطليعة جنده عندما يدخل مدينة فتحها، وقوة عارمة فى حروبه التى امتدت من جبال أسبانيا إلى ثلوج روسيا. وأطلقوا على الفرقة الثانية اسم «قناصة الشرق»، وهم من المشاة يرأسهم «نيقولا بابا زوغلو» اليونانى، ونائبه العقيد «غبريال سيداروس». وقد اختلط فى كل من الفرقتين ــ وهما بضعة مئات ــ الأقباط والشوام واليونانيون، ثم غيرهم من الأجانب والفرنسيين الذين لزم تجنيدهم لكثرة القتلى والمشوهين على مر السنين.

وأهم من انتصاراتهم الحربية التى أضيفت دونهم لأمجاد نابليون، كان تأثيرهم الغريب الذى سرى فى الفنون وأدى إلى تطوير الذوق. فبسحنتهم السمراء وملابسهم الشرقية الخلابة أثاروا - بغير قصد - حركة البعث الفنى التى نشأت فى غرب يستوحى الشرق انطلاقا من مراسم المصورين (Carle Vernet, Gros, Guerin, Girodet, Gericault) فقد لبى هؤلاء دعوة السلطات لتخليد معارك نابليون فى لوحات عريضة، ثم اشتعلت جذوة الولع بالشرق بعد سقوط نابليون وتسريح «المماليك» واضطرارهم ــ كسبا للعيش ــ أن يشتغلوا نماذج حية للرسامين. وآلت زعامة التجديد الاستشراقى إلى المصور «ديلاكروا» Delacroix الذى احتل إبداعه «الرومانتيك» عرش سلفه «دافيد» David مقلد الإغريق والرومان.

ومن الفن المرئى تسرب الهيام بالشـــرق إلـــى الأدب، وتجاوبت أصداء المشرق فى الثقافة الأوروبية. فـــى فرنســـا أخصـــب الشـــعر والنثـــر، واستشـــرق «فكتـــور هوجـــو»، و«لامارتين» الذى أعجب بمواويل المصريين فـــى مرســـيليا وسافر إلى الشام، كما سافر لمصر نرفال وفلـــوبير وتيوفيـــل جوتييه إلخ. وكان قد ترجم المواويل شاعر جاء صـــبيا مـــع هجرة يعقوب ونبغ فى باريس اسمه يوسف أجـــوب Agoub وكان أبوه صائغا أرمنيا بالقاهرة.

وسيستقبل أجوب بعثة الطلبة المصريين ســـنة ١٨٢٦ ويقوم بتدريسهم الفرنسية، فيتأثر بفكره رفاعـــة الطهطـــاوى ويترجم بعض شعره ونثره. ويموت أجوب وهو فى الســـابعة والثلاثين من عمره.

وممن صنعوا نهضة الاستشراق اللغوى فى أوربا فتـــى مغمور من أبناء أسيوط عمل كاتبا عند يعقوب ويحمل اســـمه ــ إليوس بقطر ــ قاموس فرنسى عربى وضعه فأصبح عمدة الدارسين وبداية نقل ألفاظ الحضارة العصرية. ولكنـــه مـــات مكدودا سنة ١٨٢١ فى الثامنة والثلاثين من عمـــره، عقـــب تعيينه أستاذا للعربية العامية بمدرسة اللغات الشرقية بباريس. ولا نعلم متى مات ــ ومتى ولد ــ العلامـــة القـــس يوحنـــا الشفتشى الذى جمع بين تعمق اللغات القديمة فكـــان العضـــو الشرقى الوحيد فى لجنة تأليف موسوعة «وصـــف مصـــر»، وبين المسئولية العسكرية ضابطا فى الفيلق القبطى. ونســـى

التاريخ وجوده مع أن شامبليون استقاه صوتيات اللغة القبطية، فكأن باعث الحضارة الفرعونية تسلم منه المفتاح الذى به فك رموز الهيروغليفية.

ومات جنود مجهولون وردوا ساحات القتال، نقرأ ما بقى من بعض أسمائهم فى محفوظات فانسين، وأهمها قائمة «المماليك» ولو أنها عجالة مقصورة على ٥٨٣ اسما فيروعنا أن نتبين ضمن من «فقدوا» أثناء انسحاب جيش نابليون من روسيا ــ فى جليد نوفمبر وديسمبر ١٨١٢ ــ مصريون ولدوا تحت شمس القاهرة والصعيد مثل «أسعد عبد الملك» الذى حط فى فرنسا صبياً وخاض المعارك منذ ١٨٠٨، و«المملوك إبراهيم» المولود بأسيوط سنة ١٧٨٣، و«جرجس المصرى» المولود بالقاهرة سنة ١٧٩٢، و«فرج تالوت» المولود بها والمجند منذ ١٨٠٨، ويستوقفنا «بولس بركة» المولود بالإسكندرية، فقد حارب على كل الجبهات، ورغم طعنة سيف أصابته فى «فاجرام» سيق إلى روسيا حيث تجمدت خمس أصابع من قدمه اليسرى فأعيد إلى مستودع اللاجئين بمرسيليا. وممن أحيلوا إلى الاستيداع «تادرس القبطى» و«يوسف واصف» من مواليد القاهرة، و«يوسف نخاخلى» المولود فى فرشوط بعد إصابته بثلاث رصاصات سنة ١٨١٢، و«توما المصرى» ابن سعد ومريم بالقاهرة عقب إصابة قبضته اليمنى بالسيف فى مشاجرة بإسبانيا، و«يوسف ميخائيل» المولود فى أسيوط سنة ١٧٨١ والذى

يحمل ندبة فى وجنته اليسرى. وأما «ميخائيل المصرى» المولود بالقاهرة سنة ١٧٨٦ فقد استبسل فى جميع معارك نابليون وكتبت له النجاة إلا فى معركة «إيلو» حيث جرحت ذراعه، ولكنه رافق الإمبراطور إلى منفاه بجزيرة إلبا (١٤ إبريل ١٨١٤).

وقارئ مشروع يعقوب لا يعثر فيه على كلمة «قبطى». بل يجد مصر كيانا سياسيا وطنيا رشيدا، على وعى بمركزيته وتوسطه وتوازنه، بموقعه الجغرافى وموارد أرضه وطاقاته الاقتصادية، متفتحا على المستقبل، يريد أن يتحرر من الاستبداد العثمانى ليستأنف دوره الحضارى بين الدول المتقدمة.

لذا لا تنفصل هجرة المعلم يعقوب عن ثمارها الإنسانية التى لم يتعمد غرسها؛ فقد أسفرت أعمال رجاله المغتربين النكرات عن ملامح وجه مصر. تجلت الأصالة الفرعونية دون أن يقال إن شامبليون تتلمذ على يوحنا الشفتشى. ونهل المستشرقون من اللغة العربية فى دروس إليوس بقطر وزملائه ومخطوطاتهم وكتبهم، على حين فتح قاموسه معجم اللغة العربية على مفاهيم العصر الحديث، فأطلق اللغة المقيدة من عقالها وأحيا فيها وظيفة التبادل مع الآخرين. تكاملت طبقات مصر الحضارية المرصوصة، وظهرت استمراريتها التاريخية وتعبر عن هذه الحقيقة قولة لعالم الإنثروبولوجيا «نيوبرى» (P.E Newberry) ترجمها جمال حمدان: «مصر وثيقة من جلد الرق، الإنجيل فيها مكتوب فوق هيرودوت،

وفوق ذلك القرآن، وخلف الجميع لا تــزال الكتابــة القديمــة مقروءة جلية».

ومصداق ذلك تعريف طه حسين للشخصــية المصــرية بثلاثة عناصر: العنصر المصرى الخالص «الذى ورثناه عــن قدماء المصريين»، والذى نستمده «من أرض مصر وسمائها، ومن نيل مصر وصحرائها»، والثانى هو العنصر العربى الذى تمصر «فليست اللغة العربية فينا لغة أجنبية»، والثالث هــو العنصر الأجنبى «الذى تقتضيه طبيعــة مصــر الجغرافيــة» ويأتيها دائما من «اتصالها بالأمم المتحضــرة فــى الشــرق والغرب» منذ اليونان قديما، والعرب فى العصور الوسطى إلى الغرب الأوروبى والأمريكــى الآن. «فشخصــيتنا المصــرية العربية أقوى من أن تمحى أو تزول، والحضــارة الأوروبيــة أقوى وألزم من أن نعرض عنها أو نقصر فى الأخــذ بحظنــا منها».

لقد التأمت العناصر فى مطلع القرن التاسع عشر: مات جنود مجهولون - أولهم المعلم يعقوب - وأسفر وجه مصــر الحضارى.

الوثائق والصور

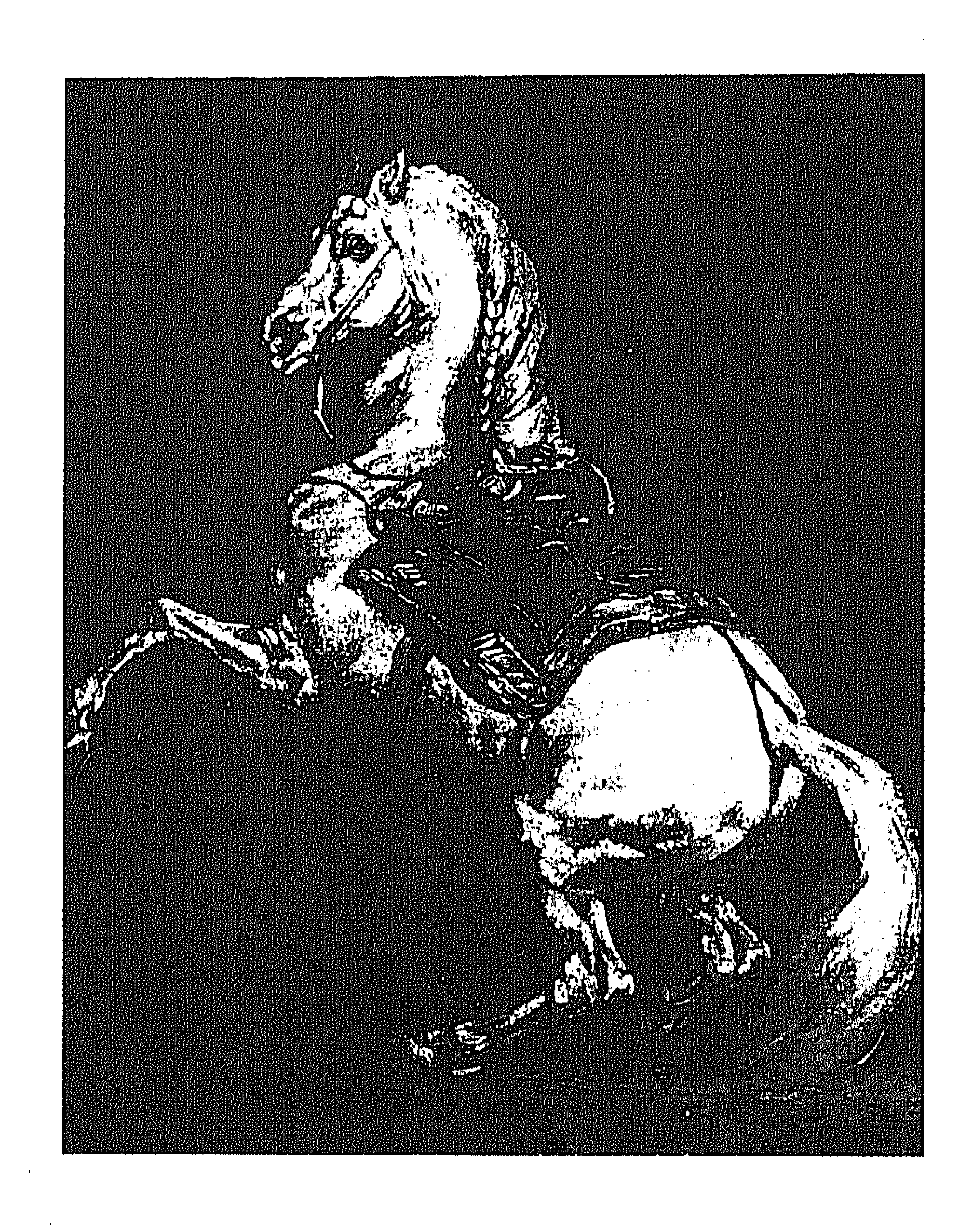


١- صورة الغلاف: المعلم يعقوب بريشة أحد أحفاده من عائلة حمصى، نقلاً عن فيفان دينون ـ نشرها جاستون حمصى فى كتابه عن المعلم يعقوب، ص ١١٣.



٢- أصل الصورة السابقة ــ وقد شكل الفنان مجموعة زخرفية يتحاور فيها رأسا راهبين (إلى اليسار) ورأس يعقوب (إلى اليمين).

Vivant Denon, Voyage dans La Basse et La Hante Egypte Pendant les Campagnes du general Bonaparte Paris, an x, 1802.



٣- «تامرلان حصان نابليون» بريشة الفنان جيريكو وإطلاق نابليون اسم تيمورلنك على حصانه ينم عن جرح فى نفسه لم يلتئم منذ عجز عن كسر شوكة المماليك، فهو والهند إلى إيران وتركيا، أى البطل الذى تقمص قوى المماليك فى مهدهم!



٤- لوحة رسمها الفنان تولوز لوتريك Toulouse - Lautrec سنة ١٨٩٥ «نابليون على صهوة جواده». إلى يساره فارس من الحرس، وإلى يمينه مملوك انحنى ليسرع الركض، وفى الأفق مملوك آخر ـ بعمامته وشاربه ـ رافعًا العلم، الذى يشير طرفه إلى الإمبراطور المرهق، المتدثر ليتخفَّى. وتلك هى الصورة الأسطورية التى ترسبت فى مخيال الفرنسيين عند نابليون يخف به المماليك.

Est-il utile à la France de rétablir l'Empire d'Orient ?

Dans ce siècle de prodiges où les facultés de l'étonnement sont, dit-on, presque déjà épuisées, où nous voyons l'Angleterre, cette fière ennemie des principes de la révolution française, finir par les introduire même au sein de la plus pure de toutes les aristocraties, nous demandons-nous si la France Républicaine cherchait à rétablir l'Empire d'Orient ? non sans doute, car en dernière analyse les gouvernements comme les hommes suivent toujours d'après leur propre intérêt actuel. Cela étant, est-ce l'intérêt actuel de la France de chercher à le rétablir ? et alors elle le rétablira. Examinons rapidement cette question.

Depuis longtemps on parle de la faiblesse de l'empire ottoman, de l'impossibilité où ce gouvernement peu éclairé sera longtemps subsister au milieu des puissances ambitieuses qui l'environnent ; son démembrement, dit-on, sera une suite inévitable de l'ignorance vicieuse de tous les états [illegible] ; s'il ne l'est pas jusqu'à présent c'est seulement que la France peut encore s'y opposer et qu'elle le protège ainsi par des motifs puissants, dont les deux principaux sont pour ne point laisser agrandir deux empires déjà trop étendus, et pour ne point se priver des avantages commerciaux dont elle jouira toujours en Levant, tant que l'empire ottoman conservera toute son intégrité.

Le démembrement de cet empire ne convient donc pas à la France. Cependant elle ne pourra pas l'empêcher, c'est l'opinion du général Menou, qu'il m'a plusieurs fois énoncée dans nos entretiens particuliers. Dans ce cas quelles seront pour elle les suites de ce partage ? quelle en sera la portion ? que ce soit l'Égypte qu'on y joigne même la Syrie, elle n'en retirerait [illegible] les revenus et tout de [illegible] qui lui rendait son commerce du Levant avant la guerre. La part de l'empire ottoman lui assurera-t-elle une influence politique en Orient proportionnelle à celle qu'y obtiendraient les autres puissances copartageantes ? Supposons même que la marine française pût rivaliser avec celles de l'Angleterre et de la Russie, qui auraient alors un même intérêt à se défendre contre la France, à quels hasards, à quelles dépenses ne s'engagerait-elle pas, forcée comme elle le serait de se maintenir dans sa part échue, ou plutôt dans sa colonie, contre des puissances environnantes du premier ordre, qui pourraient assurément l'envahir à la première rupture, par un simple mouvement de leurs armées ?

Si le partage de l'empire ottoman ne peut donc être que désavantageux à la France, et cependant elle ne pourra pas toujours l'empêcher, il faut du moins qu'elle se ménage en Asie une espèce dont elle puisse se servir au besoin à son gré, pour obtenir par elle ce qu'elle ne peut espérer lors du partage, l'influence politique et commerciale dans les plus belles contrées de l'Orient.

La France n'a pour cela qu'à former un nouvel état sur la mer Noire et [illegible] pour cela la [illegible] des Lascaris, leur faire céder et garantir par la porte ottomane une portion de leur antique possessions, Trébizonde par exemple, et les pays de sa dépendance jusqu'aux Conf

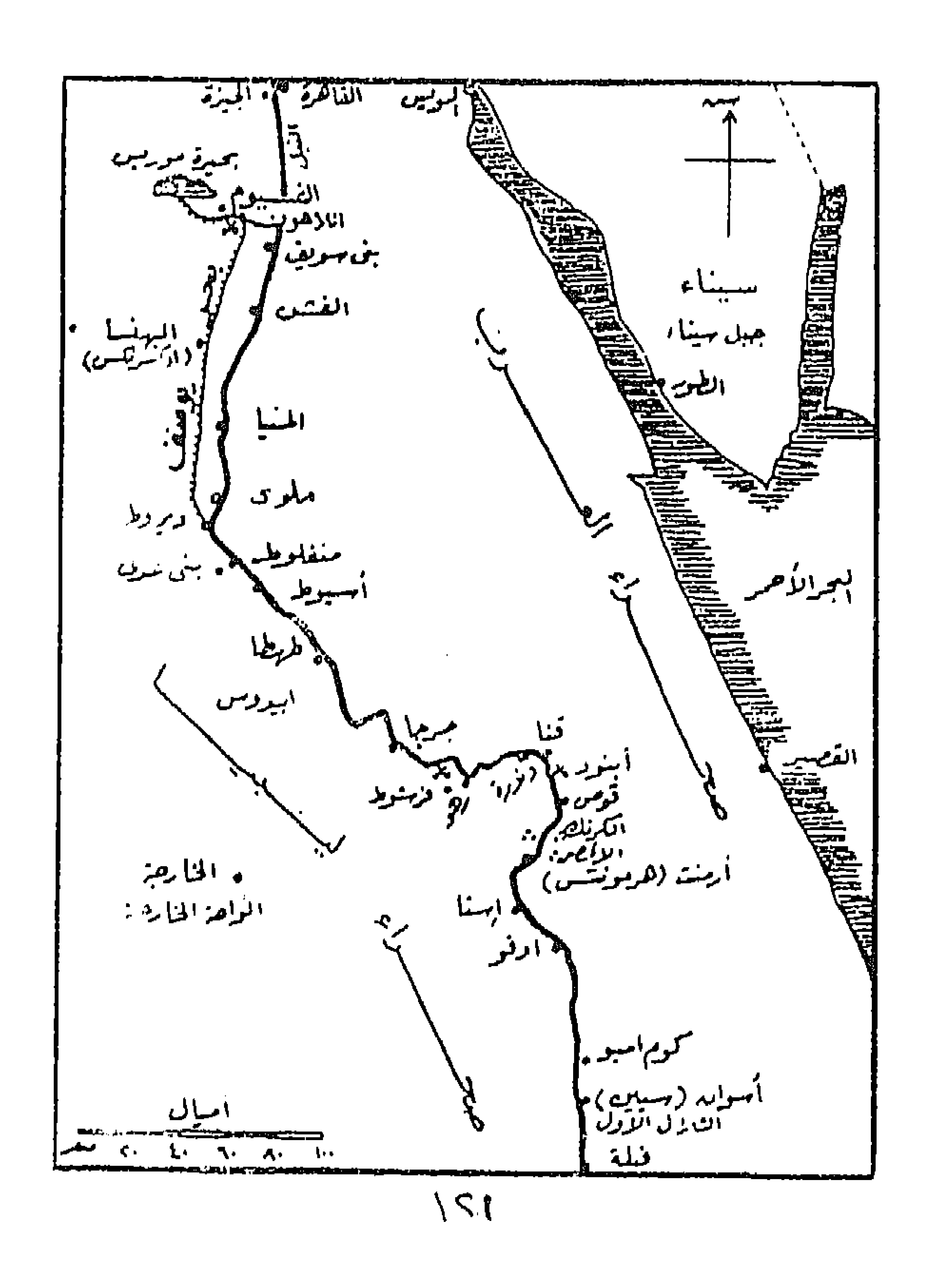
de la Morée. Cette position est avantageuse pour la France sous plusieurs rapports. La Grèce [illegible] peut être bien plus chère à la protection que son envoyé Kalil Effendi vient demander au gouvernement français. La cession de ces pays n'est pas un bien grand sacrifice pour elle; enfin par quel moyen la France pourrait jeter les premiers fondements de sa puissance en Asie. Pour ne s'inquiéter aucune plus, elle n'a qu'à [illegible] son propre ouvrage; comme elle [illegible] la République italienne, [illegible] de l'Italie, en établissant l'état grec de [illegible], elle [illegible] l'Orient [illegible] il était pouvant prendre, [illegible] un accroissement [illegible] tout ce qu'elle peut désirer pour sa marine, [illegible] pour son commerce dans la mer noire, [illegible] dans l'Asie mineure, l'Arménie, la Perse [illegible] pour le gouvernement français il pourrait présenter un obstacle aux vues et ambitions [illegible] sur le Midi, faciliter les vues de la République française dans l'Inde, en [illegible] les gouvernements [illegible] les intérêts anglais. Il était enfin profitant [illegible] de la faiblesse de [illegible] de la [illegible] de l'Empire allemand [illegible] en partage [illegible] pour les avantages [illegible] de la France principalement, tout il faut pour [illegible] une [illegible] politique.

La France dont les destinées sont peut-être prêtes [illegible] le gouvernement de Bonaparte [illegible] après avoir fait [illegible] un empire [illegible] la gloire, et [illegible] au partage de l'Empire ottoman, l'état de [illegible] de nouvelles sources [illegible] de richesse et de splendeur; ce nouvel état créé par la France ne [illegible] que l'ancien empire [illegible] rétabli par elle. [illegible] est-il de son intérêt actuel de le rétablir? Je crois que oui. C'est au [illegible] à son gouvernement seul à apprécier mes vues politiques. S'il daigne se servir de moi comme d'un simple instrument, je serai [illegible] de pouvoir ainsi témoigner mon zèle et mon dévouement connus pour la république française et le Magistrat [illegible] sur ses [illegible].

[illegible]

٥- مذكرة لاسكاريس «هل من المفيد لفرنســا أن تقـيم إمبراطوريـــة الشرق؟»، التى أرسلها إلى الجنرال مينو مع خطاب مؤرخ ٩ مايو ١٨٠٢ يقول فيه: «كنت أخشى أن أفسد قضية مصر والمصريين لو أننى منذ وصولى إلى باريس أعلنت الخطة التى اصطلحنا عليها» — يعنى خطة مشتركة اتفق عليه الاثنان، لاسكاريس ومينـــو، وهـــى خطة تناقض «قضية مصر والمصريين»، وهكذا يعترف بموضوعية المشروع المصرى.

Archives de Vincennes, Correspondance de l'Armee d'Orient, 4 mai 1802.



٦- خريطة لصعيد مصر فى عصر المعلم يعقوب.

المصادر والمراجع

أولاً: الوثائق:

- Public Record Office, London. - F.o. 78 Turkey, vol. 33
- Archives du ministere des Relations Exterieures, Paris. - Correspon - dance Politique, Turquie, Vol. 203, 204, 205, 206, 208, 218; correspon - dance commerciale, le Cairo, vol. 26 Alexandrie, vol. 19.
- Archives Nationales, Paris. - Serie AFIV, FI, F15, F10.
- Service hisorique de l armee de terre, Vincennes. - Orientaux (1798 - 1815); Armee d' Orient: Correspondance, Situations, registres.
- Archives departementales des Boches - du Rhone, Marseille. - 200 E 876, 892. L 338.
- Archives Communales, Marseille. - Etat Civil; Cadastre ; Refugies egyptiens.
- Archives departementales de Seine - et - Marne, Melur. - 6 M 183.

ثانياً: الكتب والمخطوطات والمقالات:

- عبد الرحمن الجبرتى: عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، بـولاق ١٨٧٩/١٢٩٧. ٤ أجزاء.

- مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس، تحقيق أحمد زكى عطيـة، عبد المنعم عامر، محمد فهمى عبد اللطيف، حنفى عامر. القاهرة، المطابع الأميرية ١٩٦١/١٣٨٠.

- إسماعيل الخشاب: تذكرة لأهل البصائر والأبصار مع وجه الاختصار فى أخبار القرن الثانى عشر. مخطوط فى المكتبة الوطنية بباريس، حققه محمد زكريا عنانى. القـاهرة، «أخبـار الأدب» عـدد ٧٣، ٤/٧٤، ١١ ديسمبر ١٩٩٤.

- نقولا ترك: مذكرات نقولا ترك (١٧٩٨ ـ ١٨٠٤) نشرها وترجمها للفرنسية وعلق عليها جاستون فييت. القـاهرة، مطبعـة المعهـد الفرنسى للآثار الشرقية ١٩٥٠.

- أحمد كتخدا عزبان: الدرة المنصانة فى وقايع الكنانة، من عـزلان السلطان محمد خان طاب ثراه سنة ١٠٩٩ إلى توليـت السـلطان عثمان خان دام نصره سنة ١١٦٨ وما أتى مصر من الباشـوات إلى يومنا هذا (الخميس ٢٥ جمادى الأول سنة ١١٦٩). مخطوط بمكتبة مدينة جنيف (Ms. O. 11).

- على مبارك: الخطط التوفيقية الجديدة. بولاق ١٣٠٤-١٨٨٦/٦ ـ ٩ ـ ٢٠ جزء.

- يعقوب نخلة رفيلة: تاريخ الأمة القبطية. القاهرة ١٨٩٩.
- جمال الدين الشيال: التاريخ والمؤرخون فى مصر فى القرن التاسع عشر. القاهرة، النهضة ١٩٥٨.
- عبد الرحمن الرافعى: تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر. القاهرة، النهضة ١٩٢٩. جـ١، ٢.
- شفيق غربال: الجنرال يعقوب والفارس لاسكاريس ومشروع استقلال مصر فى سنة ١٨٠١. القاهرة، دار المعارف ١٩٣٢.
- أحمد عزت عبد الكريم: تاريخ مصر من الحملة الفرنسية إلى نهاية حكم إسماعيل (١٧٩٨ـ١٨٧٩) ضمن «المجمل فى التاريخ المصرى» تأليف بعض أعضاء هيئة التدريس بكلية الآداب جامعة فؤاد الأول ونشره حسن إبراهيم حسن. القاهرة، الحلبى ١٩٤٢، ص ٢٨٥ ـ ٣٧٤.
- أحمد عزت عبد الكريم وآخرون: دراسات تاريخية فى النهضة العربية، بإشراف محمد شفيق غربال. القاهرة، الأنجلو المصرية، بدون تاريخ.
- محمد فهمى عبد اللطيف: «الجنرال يعقوب أو المعلم يعقوب وموقفه من الحملة الفرنسية»، جريدة البلاغ ٢٢ ديسمبر ١٩٤٧.
- لويس عوض: المؤثرات الأجنبية فى الأدب العربى الحديث (٢) الفكر السياسى والاجتماعى. القاهرة، دار المعرفة ١٩٦٣، ط ٢ سنة ١٩٦٦.

- عبد العزيز محمد الشناوى وجلال يحيى: وثائق ونصوص التاريخ الحديث والمعاصر. القاهرة، دار المعارف ١٩٦٩.
- محمد أنيس: الدولة العثمانية والشرق العربى (١٥١٤ ـ ١٩١٤). القاهرة، الأنجلو المصرية، بدون تاريخ.
- محمد أنيس والسيد رجب حراز: ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وأصولها التاريخية. القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٦٩.
- عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم: «نشوء الرأسمالية المحلية خلال العصر العثمانى (١٥١٧ ـ ١٧٩٨)»، ص ١٤٥ ـ ١٨٣ فصول من تاريخ مصر الاقتصادى والاجتماعى فى العصر العثمانى، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠ (سلسلة تاريخ المصريين ٣٨).
- طه حسين: فصول فى الأدب والنقد، «إلى الأستاذ توفيق الحكيم» ص ٩١ ـ ١٠١، القاهرة، دار المعارف ١٩٦٩.
- محمود متولى: الأصول التاريخية للرأسمالية المصرية وتطورها. القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٤.
- البحر الأحمر فى التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة بإشراف أحمد عزت عبد الكريم. أبحاث الأسبوع العلمى ١٠ ـ ١٥ مارس ١٩٧٩. القاهرة، جامعة عين شمس ١٩٨٠.
- جمال حمدان: شخصية مصر، دراسة فى عبقرية المكان. القاهرة، عالم الكتب ١٩٨٠ـ ١٩٨٤. ٤ أجزاء.

- أحمد حسين الصاوى المعلم يعقوب بين الأسطورة والتاريخ. القاهرة، دار الفكر ١٩٨٦.
- ليلى عبد اللطيف أحمد: الصعيد فى عهد شيخ العرب همام القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٧.
- محمد نور فرحات: المجتمع والشريعة والقانون. القاهرة. دار الهلال، يونيه ١٩٨٦.
- محمد عفيفى: الأقباط فى مصر فى العصر العثمانى. القاهرة.: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٢(سلسلة تاريخ المصريين العدد ٥٤).
- نسيم مجلى: لويس عوض ومعاركه الأدبية. القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٥٥.
- إلهام محمد على ذهنى: مصر فى كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين فى القرن الثامن عشر. القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٢ (سلسلة تاريخ المصريين، العدد ٥٢).
- نبيل السيد الطوخى: صعيد مصر فى عهد الحملة الفرنسية ١٧٩٨ ـ ١٨٠١. القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٧.
- أنور لوقا: ربع قرن مع رفاعة الطهطاوى، القاهرة، دار المعارف ١٩٨٥.
- أنور لوقا: حملة بونابرت ومصر: «محاولة استعمارية فاشلة تكللت بهالات المجد الزائف»، «أخبار الأدب» العدد ١٦٥، ٨ سبتمبر

١٩٩٦. (ترجمة وليد الخشاب).

- أنور لوقا: عودة رفاعة الطهطاوى، سوسة ــ تونس، دار المعارف ١٩٩٧.

ثالثا: باللغات الأوربية

- Auriant, "Maallem yakoub, dit le "General Jacob", commandant la Legion Copte (1798 – 1801), "L'Acropole, VI, 1931, pp. 137 – 146.
- AURIANT, La vie du chevalier Theodore Lascaris ou l'Imposteur malgre lui, Paris 1940.
- BACHATLY, ch., "Un member oriental du premier Institut d,Egypte : Don Raphael (1759 – 1831), "Bulletin de l'Institut d'Egypte, XVII 2, 1934 – 1935, pp. 237 – 260.
- BELLIARD, A-D., Memoires du comte Belliard publies par Vinet, Paris 1842.
- BRUNON, Raoul et Jean, Les Mameluks d'Egypte. Les Mameluks de la Garde Imperiale, Marseille n.d.
- CHARLES – ROUX, Francois, Les origines de l'expedition d'Egypte, Paris 1910.
- CHARLES – ROUX, Fr., Autour d'une route. L'Angleterre, l'isthme de Suez et l'Egypte au XVIIIe siecle Paris 1922.
- CHARLES – ROUX, Fr., Les Echelles de Syrie et de Palestine au XVIIIe siecle, Paris 1928.
- CHEVALIER, M., "La politique financiere de l'Expedition d'Egypte (1798 – 1801), "Cahiers d'histoire egyptienne, VII – VIII, juin 1955 – juillet 1956.
- DAUDET, Ernest. La Terreur Blanche. Episodes et souvenirs de la reaction dans le Midi en 1815, d'apres des souvenirs contemporains inedits, Paris 1878.
- DEHERAIN, Henri, L'Egypte turque. Pachas et Mamelouks du XVIe au XVIIIe siecle. L'Expedition du general Bonaparte (Histoire de la Nation Egyptienne 5), Paris 1934.
- DELANOUE, Gilbert, Moralistes et politiques musulmans dans l'Egypte de XIXe siecle (1798 – 1882), Le Caire 1982, 2 vol.
- DENON, Vivant, Voyage dans la Basse et la Haute Egypte pendant les campagnes du general Bonaparte, Paris 1802, 2 vol.
- DOUIN, Georges, L'Egypte independante. Projet de 1801, Le Caire 1924.
- GIBB, H.A.R. & BOWEN, Harold, Islamic society and the West, 2 vol., Oxford 1950 – 1957.

- GIRGIS, Samir, The Predominance of the Islamic. Tradition of Leadership in Egypt during Bonaparte's Expedition, Berr – Frankfurt 1975 (European University Papers).
- GRAN, Peter, Islamic Roots of Capitalism: Egypt 1760 – 1840 Austin – Lonon 1979.
- GOZLAN, Leon, "Les Refugies Egyptiens a Marseille," La revue contemporaine, janvier 1866, pp. 31-47.
- GUEMARD, Gabriel, "Les auxiliaries de l'armee de Bonaparte en Egypte, "Bulletin de l'institut d'Egypte, IX, 1926, pp. 1-17.
- HADDAD, George A., "A project for the independence of Egypt, 1801," Journal of the American oriental society, vol. 90 no. 2, april – june 1970, pp. 169 – 183.
- HADDAD, Robert M., Syrian Christians in Muslim society, Princeton 1970.
- HAJJAR, Joseph, les Chretiens Uniates du Proche – Orient, Paris 1962.
- HOMSY, Gaston, Le general Jacob et l'expedition de Bonaparte en Egypte, Marseille 1921.
- HOURANI, A.H., "The changing face of the Fertile Crescent in the XVIIIth century, "Studia Islamica, VIII, 1957, pp. 89-122.
- HOURANI, A.H., "The Syrians in Egypt in the eighteenth and nineteenth centuries," Colloque international sur l'histoire du Caire, 1969, pp. 221 – 233.
- JONQUIERE, C. de La, L'expedition d'Egypte (1798 – 1801), 5 vol., Paris 1899 – 1907.
- KAYATA, P., Monographie de l'eglise grecque catholique de Marseille, Marseille 1901.
- LAURENS, Henry, Origines intellectuelles de l'expedition d'Egypte, l'orientalisme islamisant er France 1698 – 1798. ISTANBUL – Paris 1987.
- LAURENS, Heny, L'expedition d'Egypte 1798 – 1801. Paris Colins 1989
- LOUCA, Anouar, "La Renaissance egyptienne et les limites de l'oeavre de Bonaparte", in Cahiers d'Histoire Egyptienne, VII / 1, Fevr. 1955, pp. 1-20.
- LOUCA, Anouar, Voyageurs et ecrivains egytiens en France au XIXe siecle, Paris 1970.

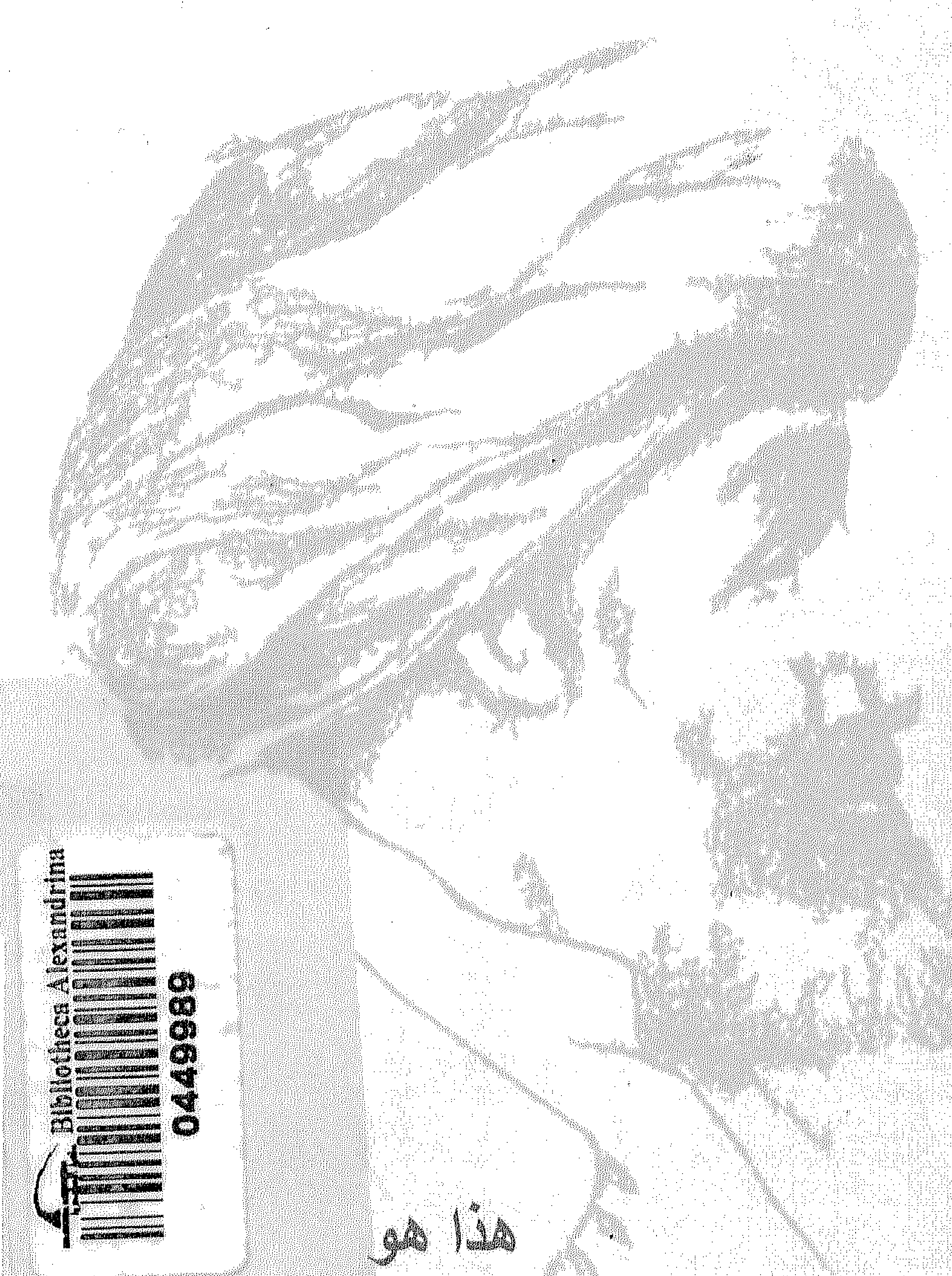
- LOUCA, Anouar, "Militaires coptes en Egypte au XIXe siecle," in Minorites, techniques et métiers, Aix – en – Provence 1980, pp. 139 – 148.
- LOUCA, Anouar, "Les cinquante jours a Marseille de Rifa'a al – Tahtawi, "in L'Orient des provencaux dans l'histoire, Marseille 1982, pp. 325 – 329.
- LOUCA, Anouar, "Quels Mamelouks ?," ibid. Pp 340 – 353.
- LOUCA, Anouar, "Les Mamelouks messagers de l'imaginaire," ibid., pp. 354 – 359.
- LOUCA, Anouar, "Les sources marseillaises de l'Orient romantique," in Le miroir Egyptien, Marseille 1984, pp. 243 – 257.
- LOUCA, Anouar, "Champollion entre Bartholdi et Chiftichi", in Rivages et deserts, Hommege a Jacques Berque, Paris 1988, pp. 209 – 225.
- LOUCA, Anouar, "Ya' qub et les lumierés", Revue du Monde Musulman et de la Medtiterranee, no. 52- 53, 1989, pp. 63 – 76.
- LOUCA, Anouar, L'autre Egypt, de Bonaparte a Taha Hussein, Paris, (NRSED) 2002.
- LOUTFI el-Sayed Afaf, «The role of the ulama in Egypt during the early nineteenth century», in Holt, Political and Social Change, London 1968, pp. 264-280.
- LOUTFI el-Sayed Afaf, «A socio - economic sketch of the Ulama in the eighteenth century», Colloque international sur l'histoirse du Cairo, Ministere de la Culture, le Cairo 1972, pp. 313-319.
- MOTZKI, Harald, Dimma und Egalite. Die nichtmusliminschen Minderheiten Egyptians in der zweien Halfte des 18 Jahrhunderts und die Expedition Bonapartes (1798-1801). Bonn, 1979.
- MOUSSA, Sarga, «La decadence» des Coptes: des recits de voyage en Orient a la Description de l'Egypte», Enqetes en Mediterranee, Actes de col loque Athenes-Nauplie, 1955, editea par M.-N. Bourguet et alii, Athenes, 1999, pp. 239-252.
- POCKOCKE, R., Voyages de Richard Pockocke, Paris 1772.
- RAYMOND, Andre, Artisans et commercants au Caire au XVIIIe siecle, 2 vol., Damas 1974.

- RAYMOND, Andre, «Le Cairo: economie et societe urbaine a la fin du XVIIIe siecle», in L'Egypte au XTXe Siecle, R.Mantran (ED), Paris 1982, pp. 121-139.
- RAYMOND, Andre, Geandes villes arabes a l'epoque ottomane, Paris 1985.
- RAYMOND, Andre, Egyptiens et Francais au Cairo, 1798-1801, Le Caire, IFAO, 1998.
- REYNAUD, Georges, «Les donnees de l'etat civil et du cadastre (1801-1833),» in L'Drient des Provencaux dans l'histoire, Marseille, 1982, pp. 368-370.
- RIGAULT, Georges, Le general Abdallah Menou et la derniere phase de l'expedtition d'Egypte, Paris 1911.
- ROUSSEAU, Francois, Kleber et Menou en Egypte depuis le retour de Bonaparte (aout 1799-septembre 1801), Paris 1900.
- SAMAN, Edouard, «L'eglise Saint-Nicolas de Myre de Marseille et les collaborateurs orientaux de Bonaparte, «Marseille, revue municipale, no. 124, 1er trimester 1981, pp. 50-59.
- SAVANT, Jean, Les Mamelouks de Napoleon, Paris 1949.
- Valognes, Jean - Pierre, Vie et mort der chretiens d'Qrient, des Origines a nos Jours, Paris 1994.
- VOLNEY, C.F. Chasseboeuf comte de, Voyage en Syrie et en Egypte [1782 - 1785], pub. Par Jean Gaulmier, Paris - La Haye, 1959.

المحتويات

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٧٦٣٧ / ٢٠٠٢



هذا هو

المعلم يعقوب